



في تجربة الكتابة

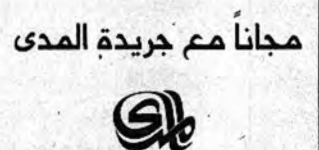
س.ر.مارتين



ترجمة: تحرير السماوي



منتدى اقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com



مجاناً مع جريدة المدى



الكتاب للجميع

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير

فخري كريم

فاكس ٧١٧٥٩٤٣

هاتف ٧١٧٠٥١٣-٧١٧٠٣٩٥

almadapaper.com

almada119@hotmail.com

almada112@yahoo.com

سلسلة شعبية تعيد إصدارها

دار المدى للثقافة والنشر

رئيس مجلس الادارة والتحرير

فخري كريم

الاشراف الفني

محمد سعيد الصكار

سورية - دمشق- ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان -بيروت- الحمراء- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣

almadapaper.com

almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

الهيئة الاستشارية

المنجي بو سنينة

تركي الحمد

جابر عصفور

خالد محمد احمد

خلدون النقيب

سيد ياسين

طلال سلمان

علي الشوك

فؤاد بلاط

محمد الماغوط

محمد برادة



٢١

س. ر. مارتين

في تجربة الكتابة

ترجمة: تحرير السماوي

طبعة خاصة
توزع مجانا مع جريدة (المدى)

دار المدى للثقافة والنشر
٢٠٠٦

تقديم

كيف تستيقظ الأحداث في ذات الكاتب؟ وما هي النقاط الأساسية التي تشكّل الخط الدرامي لأي عمل روائي؟

بل كيف يولد عمل أدبي بعينه؟

تحت عنوان «بحث في تجربة الكتابة» نشرت صحيفة «العالم يوم الأحد» الألمانية قبل بضع سنوات سلسلة من المقالات موقعة باسم مستعار هوس.ر. مارتين. وكان من المقرر أن تنشر الصحيفة عشر مقالات على مدى عشرة شهور.. وحين أوقفت الصحيفة نشر هذه السلسلة وصلت الى ادارة التحرير الكثير من رسائل القراء تحتج وتطالب بالمزيد من المقالات.

هذا النجاح له علاقة كبيرة بالعنوان، فهو رصد لتجربة الكتابة بمجالها الناجح والمؤثر. لقد جاءت مقالات مارتين بمنزلة استقصاء لحالات الكتابة، وشيوع الابداع في لغة تخاطب كل البشر، فأعمال مثل «ذهب مع الريح -لمرغريت ميتشل» و«الشيخ والبحر لهمنغواي» و«مقتل بيلا -لسيمنون» و«لا جديد في الجبهة الغربية -لريمارك» و«كوخ العم توم -لستو» وابداعات أخرى لتوماس مان وويلز وتولستوي وهرمان هسه وغيرهم من الكتّاب الكبار، كانت تسلك طريقها الى القارئ عبر قنوات تتواصل بقدرتها على التأثير وخلق حالة التفاعل الانساني، دون أن تكون للقارئ معرفة واضحة بسلوك الكاتب خلال انتاجه لهذا الأثر الكبير أو ذاك. كانت عملية

الخلق تنحصر في دائرة الخصوصية التي ترافق عملية الكتابة. كتب كهذه تخاطب البشر، بآمالهم وأحزانهم بشوقهم وفرحهم، الحياة الانسانية تبدأ وتنتهي غير مرتبطة بالزمن الا بوثاق كونها عاشت مرحلتها وتركت بصماتها على رخام الزمن.

والمؤلف عبر مختاراته يؤكد أنه كتبها بمحض المصادفة وخلال علاقات شخصية وفرت له تلك المعلومات. فهو قد تعرف على ميتشل قبل نيلها الشهرة وانزوائها، والتقى همنغواي في نيويورك في الثلاثينيات، وتعرف على ريمارك من خلال علاقة صداقة مع عائلته أولاً، وكان صديقاً مقرباً لتوماس مان.



أرنست همنغواي
الشيخ والبحر

كان ذلك في ربيع عام ١٩٥٠. لم يكن أحد يعلم بأن همنغواي قد بدأ بكتابة قصة «الشيخ والبحر». في المرة الثانية، هناك على ساحل بحر (كابانا) اصطاد الشيخ سمكة كبيرة من «سمك السيف».. ومازالت معلقة مع الطعم بالسنارة، يجرها الى وسط البحر. كلا، لم يكن أحد يعلم. همنغواي لم يتحدث حتى مع زوجته حول مشروع كتابة هذه القصة.. مع العلم أنه كان يطلعها دائماً على مشاريعه.. فماري كانت ذات خبرة صحفية مثله. هذه المرة لزم الصمت، لكنها كانت تعلم بأنه يعمل بمشروع جديد. ما نوع المشروع هذا؟. لم يكن همنغواي قد حدد معالمه، هل سيكون قصة أم قصة قصيرة أم رواية؟

كانت قوى همنغواي الجسدية آنذاك على أحسن ما يكون.. خفض من وزنه عشرين كيلو غراماً.. ولو أن الرشاقة لم تكن بادية عليه -وما بدت يوماً- إلا أن المرء يشعربأنه يملك جسداً رياضياً مدرباً ذا عضلات بارزة. رأسه الفريد لم يكن منسجماً مع الشعر الأبيض

واللحية الكثيفة. كان يضجر من الحلاقة نظراً لجلدته الحساسة. أما إذا وضع نظارتيه.. فما كان يبدو بهيئته هذه كملاكم قديم أبداً.. بل كان أشبه بالحكيم. فقط عندما يضحك ينسى المرء كل شيء.. وتعود هيئته الى طبيعتها.. شابةً وحيويةً.

وقتذاك كان عنده كالمعتاد ضيفان أو ثلاثة في «المزرعة». هكذا كان همنغواي يسمي منزله الأبيض الكبير. كان معظم الوقت مختفياً في غرفة عمله، لا يظهر إلا وقت العشاء.

في احدى الليـالي نهض من مائدة الطعـام بشكل مفـاجئ وأحضـر المسـودات وشرع بالقراءة بصوت عال.. كانت الصفحتان أو الثلاث التي قرأها. عبارة عن حوار بين صياد عجوز وصبي. وفجأة سأل مقاطعاً نفسـه: «أهذا صحيح؟ أيتحدث الناس هكذا؟» أراد الآخرون أن يستفسروا عما كان يتحدث، لكن ماري أومأت لهم بطرف عينيها.

في هذا المجال لا يسمح لأحد أن يسأل همنغواي.

وفي اليوم التالي.. كان ممتنعاً عن الكلام.. وفي اليوم الذي بعده كذلك. حتى أنه لم يأت لتناول الطعام.. وطلب من (رينيه) أن يضع اليافطة أمام البيت -والتي كانت توضع مراراً- كانت تحمل العبارة التالية:

«يمنع الدخول دون موعد».

أما الضيفان اللذان كانا مقيمين عنده (رجل من هوليوود وضابط من واشنطن) فقد وجه لهما الاعتذار قائلاً: «عليكما أن تعذراني، فأنا لا أملك وقتاً بعد اليوم.. الوقت عامة لا أملك منه إلا القليل».

فهم الضيفان مغزى الكلام.. فانصرفا.

قبل هذه الحادثة بأسبوعين.. كانت «المزرعة» تعج بالضيوف.. بيته ذو الغرف الكبيرة والذي يحمل الاسم الجميل «فينكا فيجيا» الواقع بالقرب من (هافانا) والذي يبعد عن (سان فرانسيسكو دي باولا) بمئتي متر أو أكثر.. يغري بمجيء الكثير من الأصدقاء.

ناشرون وممثلون ورسامون وضباط وطيارون ومصارعو ثيران من مكسيكو واسبانيا، وملاكمون. لم تعرف ماري يوماً كم من الطعام عليها أن تعد أو كم من هؤلاء الضيوف ينوي البقاء.

كان بيتاً كبيراً هذا الذي يملكه همنغواي.. مبني على الطراز الاسباني، يقع وسط حديقة تبلغ مساحتها ثمانية هكتارات مزروعة بكل أنواع الفاكهة والخضراوات.. يتوسطه ملعب للتنس وحمام للسباحة.. وكان لديه أبقار وكلاب وقطط.

همنغواي لا يمل من جمع القطط.. غالباً ما كان يعود من نزهاته حاملاً معه قطة صغيرة.. إما أن يكون قد خلصها من الغرق، أو من صاحبها القاسي، أو وجدها على قارعة الطريق.

الذين يديرون البيت كانوا: طباخاً صينياً، خادمين، بستانيين، سائقاً ومصلحاً ميكانيكياً لليخت. الطابق الأسفل من بيته كان مخصصاً للضيوف فقط، مزيناً بالحيوانات الافريقية المحنطة، الطابق الأول كان يضم غرف النوم والمكتبة -التي تحتوي على عشرة آلاف كتاب.

- (اشتريتها جميعاً) وضح همنغواي ذلك ذات مرة بفخر.

وبالمناسبة، لم يكن همنغواي يستعمل المكتبة لعمله.. بل كان يعمل في (البرج الأبيض) المطل على البحر والعاصمة «هافانا». كان دخوله ممنوعاً حتى على الخدم. أما بالنسبة للضيوف فكان محرماً -وما عداه كان كل شيء مسموحاً به.

كان همنغواي يذهب معهم للسباحة والرحلات البحرية ولزيارة العاصمة «هافانا». كان دائماً تحت تصرفهم -يشرب معهم الويسكي ويأكل شرائح اللحم النيء، ويزور الملاهي ويشاهد فرقها الكوبية ويسمع ألحان «التانغو».

لم يكن دائماً معتاداً على هذه الحياة.

لقد أثبت مراراً بأنه قادر على الاستغناء عن حياة الترف ففي السنوات الحرجة كان يسكن في غرفة بسيطة في حي «مونمارتر» في باريس، كما عاش في الاستراحات والبيوت المفروشة -حيث لاحياة مريحة متوفرة ولا وسائل صحية أخرى- وذلك عندما زار أميركا (نيويورك -شيكاغو) واسبانيا وانكلترا وسويسرا وألمانيا وافريقيا والصين.

لقد تجول كثيراً.. ولكن، وبمعنى آخر أكثر وضوحاً ربما بقي دائماً في وطنه. وطنه كان في وسط غرب الولايات المتحدة.. في شيكاغو حيث ولد في بيت في شمال (ميشيغان). حصل الصبي ذو العشرة أعوام على بندقية من أبيه الذي كان يصحبه دائماً في رحلات الصيد. كانت الأم مغنية وتمنت أن يصبح ابنها موسيقياً. كانت تأمل أن يتعلم العزف على «التشيلو»، ولكن هذا لم يحصل، لأنه لم يكن مولعاً بالموسيقا.

ابان الحرب العالمية.. أراد التطوع، ولكن، ولعلة ما في عينيه، لم يقبل. إلا أن الصليب الأحمر وافق أخيراً على تطوعه.. وأرسل إلى الجبهة الايطالية. أصبح سائقاً للاسعاف.. يحمل الجرحى من خط النار.. الى أن أصيب يوماً اصابة خطيرة (٢٣٧ شظية دخلت في ساقيه).. وعندما ترك المستشفى كان يسير على عكازين من الحديد.

الوطن: كان يعني المغامرة، المغامرة باعداد جموع المقاتلين الغفيرة وبينهم الصحفي.. ولكن الذي يحمل تعاطفه ومشاركته في داخله. كتاباته كانت حول انتهاء الحرب العالمية وأحداث اليونان والصين.

الوطن: كان اليأس، من أن هذه الحرب سوف لن تكون الأخيرة.

فالزحف الفاشي على أوروبا كان ينذر بحرب جديدة.

ومن يومها عرف همنغواي، مع أي جبهة سيقف (وقفت ضد الفاشية بعدما عرفت ما تعنيه الفاشية).

في الحرب الاسبانية كان يناضل بجانب الجمهوريين. واستطاع أن يجمع أدوات طبية تبلغ قيمتها (٤آلاف دولار).. ابان الحرب العالمية الثانية.. ولم تكن الحرب الاسبانية سوى (بروفة) أو مقدمة لذلك. سافر بعدها الى انكلترا وانضم الى سلاح الجو الملكي. كما عمل كمراسل حربي في الجيش الاميركي الثالث الذي يترأسه الجنرال المزين بالأوسمة (باتون).

نعم، فالوطن كان أيضاً شيئاً مختلفاً.. الطبيعة بتشكيلاتها غير المحدودة. جبال وغابات ميشغان.. ساحل (كي وست) في فلوريدا حيث الأسماك الكبيرة. الوطن، كان يعني أيضاً مصارعة الثيران في اسبانيا.. التي كان يعشقها وغالباً ما كتب حولها.

الوطن، كان يضم الملاكمين في شيكاغو ونيويورك -كانوا يتضاربون فيما بينهما كي لا يموتوا جوعاً..

الوطن، كان الحياة بأشكالها وألوانها اللانهائية (الحياة الحقة تتكون من السهول والليالي، من البحر والناس، من النساء والكلاب والسيارات). الفكرة الأساسية لرواية «الشيخ والبحر» لم تكن جديدة. انها مؤلفة منذ عام ١٩٣٦ كقصة قصيرة. كان قد نشرها في مجلة «اسكواير» التي أبرزت الشاب الموهوب (ارنولد غينغريش) من شيكاغو. آنذاك ظهرت كمقطع ضمن مقالة بعنوان (على المياه الزرقاء). رئيس تحرير مجلة «اسكواير» صرح يومها: «انها فكرة تصلح لأن تكون قصة قصيرة في عشر صفحات أو اثنتي عشرة صفحة».

ولم يذكر همنغواي يومها شيئاً حول هذا الموضوع.. حتى للناشر (تشارلز سكريبنر) الذي كان يتابع كتابات همنغواي بانتظام.

وكان سكريبنر يحث همنغواي على النشاط والسرعة في الانجاز، لأنه كان

يؤمن بأن عدم نشر أي كتاب لسنوات عديدة يتيح الفرصة لنسيان الكاتب من قبل القراء.

أجابه همنغواي منبهاً لمهنته القيمة -الملاكمة. (حصلت على البطولة في العشرينيات. وفي الثلاثينيات والأربعينيات دافعت عنها.. في الخمسينيات بودي أن أدخل الحلبة وأضرب الجميع حتى الاعياء). كان يقصد بأنه مازال قادراً على اصدار أفضل الكتب وأكثرها نجاحاً من كل مؤلفات جيله. همنغواي لم يكن من النوع الذي يؤمن بأن الكتابة موهبة يمتلكها الانسان أو لا يمتلكها. أو انها مسألة تتخللها الحماسة والمزاجية. الكتابة بالنسبة لهمنغواي كانت حرفة بإمكان الانسان تعلمها.. واتقانها بعد تعلمها جيداً. لقد فهم مبكراً (أن القصة البسيطة، مجرد قصّها، يعتبرمن أصعب الأشياء الموجودة في العالم).

كان لديه أفضل معلمة مختصة.. التقى بها في (تورنتوستار) حينما عُيّن بعد الحرب العالمية مراسلاً للصحيفة في باريس.. انها (غيرترود شتاين) الشاعرة الاميركية التي رفضت العودة الى موطنها، والتي لعبت دوراً مهماً بالنسبة للشبيبة الأميركية آنذاك.. كانت تعد أفضل ممثل عن «الجيل الضائع» كما كان يدعى الشباب الأميركي، معتقداً بعدم قدرته على تجاوز تجربة الحرب المريرة. كانت تزوره في «مونتمارتر» تقرأ ما يكتبه وتصرح بأن كتابات (روديارد كبلنغ) أفضل من كتاباته بكثير.

حتى أولى صفحات «الشيخ والبحر» لم تعرها ذلك الاهتمام. قالت «انك صحفي جيد.. انك تصف، وهذا عمل الصحفي، ولكنك لا تصف بصورة جيدة.. وأما الكاتب، فان عليه ألاّ يصف أبداً».

قلت: «ماذا على الكاتب أن يعمل؟»

قالت: «يدع الناس يعيشون، يحيون حياتهم، لا يقول شيئاً عنهم، بل يدعهم هم وحدهم يتكلمون». التأثير الباريسي الآخر كان (عزراباوند) رجل كبير وثقيل ذو لحية حمراء.. شاعر عبقري. ترك الولايات المتحدة منذ صباه. كان عندما يتلاكم مع باوند يقول باستخفاف «لا يعرف الملاكمة، حركته غير رشيقة كسرطان البحر.. ولا يعرف كيف يصدّ الضربات».

(عزرا باوند) تبرع بمراجعة نصوص همنغواي.. القلم الأحمر كان يخط دون شفقة. باوند كان يشطب الأفعال.. قال للصحفي الشاب «تملك أسلوباً جميلاً.. لكن

عليك بذل جهد مضاعف كي يصبح أسلوبك أكثر رشاقة.. اترك كل الألفاظ المدوية وحاول قدر ما تستطيع أن تصف الأشياء ببساطة أشد».

ببساطة أشد، كما لو كان ذلك سهلاً!

لم يكن يسمح لهمنغواي بكتابة كل ما يعرفه. فعليه أن يكتب ما يراه وعليه التركيز بدقة.. حتى يرى. همنغواي رأى الناس وسمعهم يتحدثون. بدأ يعرفهم من حركة اليد وومضة العين. حتى القراء كان عليه معرفتهم من خلال أحاديثهم وحركاتهم ونظراتهم.. وليس من خلال وصف الكاتب لدواخلهم. وليس من خلال اعتماد الكاتب على النظرات والحركات وما تود قوله.. بل يجب أن يبرزوا من خلال ذواتهم. الحقيقة يجب أن تبرز من خلال ذاتها.

همنغواي قرأ باللغة الفرنسية.. مع انه كان لا يتقنها.. كان يقرأ الأخبار الرياضية (فالأخبار الرياضية مركزة وواضحة.. تصور ما حدث وليس ما أحس وأفكر فيه). كما كان يقرأ المواضيع القضائية للسبب ذاته. قرأ كذلك لـ دوماس و دُوديه وستندال (عندما قرأت لستندال.. عرفت بأني أردت الكتابة على منواله). همنغواي كان يكتب بنشاط.. معتقداً بأنه يسجل تقدماً لولا مجيء الضربة الثقيلة في عيد الميلاد لعام ١٩٢٢ -عندما حضر مؤتمر الصلح بين تركيا واليونان في (لوزان) كمراسل صحفي. وقتها جاءت زوجته تخبره بأن «الحقيبة قد فقدت». الحقيبة كانت تحتوي على كل المسودات والنصوص. كانت زوجته قد وضعتها في محطة القطار.. وبلمح البصر سرقت منها. ما استطاع العثور عليها. بالرغم من الجهود التي بذلت.

وبعدها بأيام كان مهاناً بشكل يتعذر الحديث معه. كان يحتسي الشراب دون جدوى. وبأحلام السكر كانت (غيرترود شتاين) تتراءى له بقولها:

«عليك البدء من جديد».

وبدأ فعلا من جديد.

كتبه الأولى لم تلق نجاحاً.. أصدر كتاباً صغيراً يضم ثلاث قصص قصيرة وعشر قصائد. لم يبع منه سوى ٢٠٠ نسخة. كان ذلك في صيف (١٩٢٣). في آذار عام ١٩٢٤ صدر كتابه الثاني بقصص قصيرة أيضاً. لم يبع منه سوى (١٧٠) نسخة فقط. وبالرغم من ذلك، بدأت الأوساط الأدبية في فرنسا بالتحدث عنه، متوقعة له مستقبلاً لامعاً. هذا ما كان يعتقده الخمسون أديباً في مقهى (كافيه دي

دوم). وكانوا محقين في ذلك.

في عام ١٩٢٦ كانت روايته الأولى (الشمس تشرق أيضاً) قد أحدثت ضجة كبيرة. الكتاب يتحدث عن جيل ما بعد الحرب -جيل فقد قابليته للحياة. مشاكلهم ومشاعرهم باتت تشكل هموماً كبيرة. عالم جديد فتح للقراء. وأسلوب جديد أذهلهم. في الولايات المتحدة وحدها بيعت أكثر من ٢٦ ألف نسخة وهو رقم كبير بالنسبة لكاتب ناشئ. صدر الكتاب في انكلترا وفرنسا والمانيا أيضاً.

كان آنذاك يؤمن بانتصار المرء على النجاح.

قال ذات مرة لصديقه ف.سكوت فيتزجرالد «ليت باستطاعة المرء أن ينهي الرواية بشكل سريع وعاجل ليتسنى له اللحاق بكل ما يكتبه». وبعد مرور زمن طويل، تتدفق البسمة على شفتيه كلما تذكر كلمته هذه. (لم أكن أعرف وقتها كيفية كتابة الرواية -كنت أكتب باستعجال واستنفد قواي بشكل كبير.. لذا كانت كتاباتي الأولى رديئة جداً.. وكان علي أن أعيد الصياغة.. لكني تعلمت الكتابة).

في ذلك الوقت كان يقرأ لـ تولستوي كثيراً.. (انه لقادر على الخلق أكثر وأفضل من أي انسان آخر.. منه تعلمت كيف أشكك بتفكيري، وأكتب بشكل حقيقي وموضوعي.. أصعب شيء هو كتابة النثر الواقعي حول البشر. يجب اتقان الموضوع وكيفية كتابته.. ولاتقان الاثنين معاً يحتاج المرء الى حياة بأكملها).

لقد أدرك، بأنه ليس قادراً على أن يكون صحفياً وكاتباً في آن واحد.

رفض كل العروض الصحفية التي كان بوسعها أن تجعله يعيش لسنين طويلة، دون هموم. عاد الى غرفته في «مونتمارتر» حيث كان غذاؤه الوحيد البطاطا المقلية وأحياناً كان يعاني الجوع.

أراد أن يتفرغ لعمله المستقبلي.

«سأكتب كل ما أحسه وأراه، بأفضل وأبسط أسلوب.. إن كان ذلك في الامكان» واتضح له مع مرور الأيام بأن عملية الكتابة كالرسم تماماً. حذف، دقة متناهية، بساطة، تجنب البيانية واخلاص في العمل.

«إذا كتب المرء بوضوح وأراد أن يعبر عن مسألة واضحة.. فبإمكان أي انسان مثلاً، التعرف على الغش وعملية الخداع.. وسيكون ذلك أشبه بكسر شروط القواعد. أما إذا كتب بتعقيد.. فسيطول اكتشاف القارئ لغش الكاتب والكتاب الآخرين الذين يستخدمون النهج ذاته.. يثنون على الكاتب ويتخذونه كستار لهم..

خوفاً من اكتشافهم أمام القراء».

سيستغرق وقتاً.. الى أن يتخلص من كل ما هو فائض وغير ضروري، الى أن تتكلم نماذجه كما يتكلم الناس في الواقع، الى أن يخلق أسلوب همنغواي -أسلوب دون زينة ودون كلمات (الألف -دولار) كما يسمي همنغواي تلك الكلمات الكبيرة التي يستخدمها المثقفون والمتعلمون.. ويسعون مع مرور الزمن الى استبدالها بكلمات بسيطة وشعبية.

انه يتجنب كل ما يتعلق بتذكير القارئ حول وجود المؤلف. ولهذا الشأن يتجنب أيضاً كل رواية يقظة ومباشرة وكل اشراك وتعريف بأعماق الناس اذا كان يتجاوز هؤلاء الذين يكونون الفكرة والذين عليهم تكوينها.. أي الكاتب والقارئ سواء.

انه يتجنب كل الكلمات المزينة، وكل تجربة للتلوين من خلالها.. كاستعمال أربع أو خمس كلمات مختلفة للوضعية نفسها أو الشيء.. لأن أربع أو خمس كلمات قد وجدت لذلك.

فمثلاً إذا دار حوار ما في احدى روايات همنغواي -فانه يركز بوعي على كلمة «يقول» وليس على «يحكي، يصرخ، يتحدث، يصرح» اطلاقاً.

هي تقول، هو يقول.. هذا كل ما لدي همنغواي.

كان يعمل بقسوة، تنسي المرء بأنه ينتج رواية. هكذا انتجت أكبر الأعمال في عصرنا. كتابه «في بلاد أخرى» يصور قصة حب يائسة ما بعد الحرب العالمية في ايطاليا.. لأناس فقدوا كل شيء عدا الحب. وحتى الحب ينتهي عند وفاة المرأة أثناء الولادة.

وبعد مرور وقت يصدر كتاب (لمن تقرع الأجراس)، قصة حب أكثر وعياً وقسوة، وتدور أحداثها إبان الحرب الأهلية الاسبانية.. قصة رجل يعرف أن هناك ما هو أهم من الحب.. الحرية. يصبح الموت لا شيء، إذا تعلق الأمر بانقاذ الحرية في هذا العالم.

وها هي قصة (الشيخ والبحر) قصة صياد عجوز.. يضيع صيده، بعد كفاح دام أياماً. قصة بنهاية مأساوية، كباقي قصص همنغواي.

«كان رجلاً عجوزاً، يصطاد على مركبه وحيداً. أربعة وثمانون يوماً على التوالي كان يخرج للبحر دون أن يوفق بسمكة واحدة. في الأربعين يوماً الأولى كان

يساعده صبي. وبعد أربعين يوماً من غير صيد، قال أهل الصبي بأن الشيخ العجوز محاط بسوء الحظ الذي يكون أسوأ شكل للتعاسة. على أثرها ترك الصبي الشيخ الى مركب آخر، اصطاد ثلاث سمكات في الأسبوع الأول. الحزن كان يحز في نفس الصبي يومياً كلما رأى الشيخ عائداً بمركبه الفارغ».

نوم همنغواي كان خفيفاً. فعند خيوط الشمس الأولى يستيقظ في الساعة السادسة

صباحاً، يجلس وراء منضدته ويشرع بالعمل.

في السابق عندما كان صحفياً كان يستخدم الآلة الكاتبة.. أما الآن، فهو لا يستعمل الا أقلام الرصاص.. «قلم الرصاص له ايجابياته».

بوضوح كلي يرى همنغواي الصياد سانتياغو.. ضعيفاً وهزيلاً. تجاعيد عميقة في الرقبة.. عظام الورك بارزة وتتخللها بقع بنية اللون.. جلدية سرطانية -وديعة بفعل انعكاس الشمس في البحر. يداه مليئتان بآثار الحبال التي كانت تسحب السمك. كل شيء فيه قديم ومستهلك.. الا العيون الملونة بزرقة البحر. همنغواي يرى كل هذا، ولكنه يعلن عنه بفواصل كبيرة وكلمات قليلة.. يعبر عنها بشكل طفيف تقريباً، فالوصف الطويل ليس من صفات عمله.

تمر الساعات المعذبة والأسابيع والشهور.. وهمنغواي يتساءل (أيراه المرء، أيسمعه المرء، أبمقدوري احياءه للغير)؟.

دون كلمات كبيرة، دون فصول طويلة، دون استنتاجات، دون تنبيه القارئ على أن ما سيأتي سيكون مهماً.

لماذا لا يسمح للصبي أن يصطاد مع الشيخ وسط البحر ولماذا الشيخ وحده يعاني من الوحدة، هذا ما لايستطيع همنغواي الافصاح عنه.. على القارى أن يتحسس ذلك.

من قبل كانت صورة المرأة التي خسرها منذ زمن معلقة على الحائط. الآن، وضع الصورة بين طيات ملابسه.. لأن منظرها يجعل الوحدة لا تطاق.

سطران أو ثلاثة.. يستشف القارئ من خلالها مقياس الوحدة، أو كبرياء الفقراء الذين يدعون للأكل بالرغم من عدم توفره لأنفسهم.. يكون واضحاً عند موقف الشيخ الذي يدعو الصبي (مانولين) للأكل مدركاً بأن معدته لم تدخلها وجبة كاملة طيلة أيام:

اذاً فـقـد كـتب خـلال هذا الأسـبـوع (٢٨٢٨ كلمـة). غـداً عطلتـه، يذهب بهاللصيد. ويوم الاثنين؟ ليس مؤكداً كم من الـ (٢٨٢٨ كلمة) سيتبقّى.

إنه لايريد التـفكير بذلك. فـهـذا يسلبه الشـجاعة. والرواية يجب أن تسـتمر. الشيخ يذهب للصيد وسط البحر.. ليصطاد الأسماك، هذه مهنته. وليس أكثر من ذلك بديهية. وعلى القراء أن يعلموا ذلك أيضاً. همنغواي نفسه لايسمح بذكر ذلك. ليس عليه التوضيح. الكاتب لايتخذ موقف المعلم، ولايفرض وجوده. لكن الناس، القراء، الذين يكتب لهم يجب أن يتحسسوا وجود الخطر هذا. الشيخ يملك عدواً واحداً.. العدو هو البحر الذي يتموج بعدة ألوان، البحر اللانهائي، البحر العديم القاع.

البحر والشمس والوقت الذي يمضي دون اصطياد السمك الذي يسبح تحت المركب، الوقت الذي يجعل الشيخ يعاني الجوع والعطش والتعب. لقد حظي بسمكة.. لكنه لايعلم ما مدى قوته وتحمله وما مدى تحمل المركب.. انه يعلم فقط أن عليه ألا يترك السمكة تفلت من يديه ويجب استخدام كل تجاربه السابقة لمد الحبل بالمقدار الكافي.. السمكة قوية، هذا مايعرفه، السمكة تحمل قوة هائلة، لو شد الحبل.. لفقدها بسهولة..

رأى الشيخ السمكة أخيراً. كان يعلم بوجودها... مخلوقان في هذا العالم بأسره.. وجوده هو ووجود هذه السمكة التي تسبح في مكان ما تحت البحر. السمكة التي أرادها والتي سيمتلكها، ليس لتأمين طعامه لمدة شهور، وانما لاثبات جدارته كصياد ماهر.. وليس كما يدّعي الصبي (مانولين) بأنه صياد جيد..

الآن بمقدوره رؤية السمكة «المياه تنحسر عنها، إنها تلمع تحت الشمس، رأسها وظهرها كانا يتسمان باللون الأحمر القاتم، والجوانب كانت ألوانها (بركاني)، أما ذنبها فكان كبيراً كمضرب كرة بيسبول. ها هي تدفع بنفسها من الماء الى الأعلى بقوة، وتغطس ثانية. انها رشيقة كرجال الضفادع» يكتشف سانتياغو بأن السمكة أكبر من مركبة بقدمين «سأقضي عليك قبل انقضاء النهار» كان الشيخ قد وعدها ولكنه لم يستطع أن يفي بالوعد. والسمكة أخذت تجر وتجر المركب الى وسط البحر.. تجر النهار بأكمله والليل بأكمله.. في اليوم التالي أخذ الشيخ يشعر بضعف السمكة بشكل ينبئ بالنهاية.. اليد اليسرى باتت متشنجة جداً، في الليل يرتجف برداً وفي النهار تمتصه الشمس.. وبدأ الشك يساوره أحياناً، فيما إذا كان سينتصر

هو أم السمكة.

«انك تقتلينني» يقول الشيخ «ولكن لك الحق في ذلك».

كثيراً ما وصف همنغواي مصارعة الثيران وكان النقاد والقراء متفقين بأن لا أحد يجيد احياء تراجيديا مصارعة الثيران كهمنغواي. كم يلاقي مصارع الثيران من السخرية والاستهزاء، وكم مرة يعاني من الفشل.. لعدم تغلبه على الثور. وبالرغم من ذلك يدخل ساحة المصارعة مجدداً ليستعيد شجاعته. همنغواي لاينسى تراجيديا الثور.. مهما كان يتحلى بالشجاعة والقوة.. يدفع الثمن في النهاية بحياته.

لذا، فان تراجيديا الشيخ هي تراجيديا (السمكة) التي تدفع الثمن أخيراً. الشيخ يعرف بأن السمكة عدوه الكبير.. لكنها تتحول بطريقة غريبة الى صديق يستجدي الشفقة «انها أختي» يقول الشيخ محدثاً نفسه، ويكمل بعد ذلك مباشرة «سألاحقك الى أن تهلكي، سأقتلك، انه شيء غير عادل، ولكني سأريك ما بوسع المرء فعله، وما بوسع المرء انجازه».

انه يحاول مراراً أن يضع نفسه مكان السمكة، يحاول معرفة ما يدور برأسها. وكأنه يلعب (البوكر).

هذا هو السبب الذي يجعل همنغواي يهتم بالشيخ، بل ويرى هناك تشابهاً متطابقاً بينهما.

منذ سنوات عندما كان همنغواي عائداً من أفريقيا كتب يقول: «عندما يكون المرء وسط البحر وحيداً، يعرف بأن المياه منذ خلق البشرية وهي على هذا النحو تجري، وأن الأشياء التي يتعلمها المرء حوله تكون قيمة ودائمة، لأن المياه كانت دائماً تجري وعبر كل أزمان الهنود والاسبان والانكليز والامريكان والكوبيين وعبر كل أشكال الأنظمة وعبرالغنى والفقر وكل الضحايا والبؤس.. ومازال البحر يتحلى بزرقته دون تغيير دائماً وأبداً».

اذا كان المرء وحيداً..

ألم يكن هو دائماً وحيداً؟ في طفولته كان يهرب من البيت مراراً.. لقد كان وحيداً.. واعتقد بأنه سينزع وحدته في مكان ما. لم يكن يكتب آنذاك. ربما لو استطاع الكتابة والتعبير عما في داخله لزال شعوره بالوحدة، لكن حتى الكتابة لم تساعده. المرء يظل وحيداً كالشيخ وسط البحر « نظر للبحر.. وعرف، كم هو وحيد».

«آه، لو كان – مانولين – موجوداً» كان الشيخ يقول ذلك مراراً – لو كان الصبي هنا –. كان يعتقد أن وجود الصبي ضروري لانتصاره على السمكة. «كم تمنيت أن يكون الصبي هنا». لم يكن ذلك بسبب السمكة بل بسببه هو.

السمكة مازالت حية، والتحدث معها مازال ممكناً.. ولكن، ما الذي سيأتي بعد ذلك؟ هل الأمر متوقف، على من سيقتل من؟ «انني شيخ متعب، لقد قتلت السمكة، قتلت أخي»ويعلم فجأة بأنه سيكون وحيداً أكثر من ذي قبل.

لكن الأمر لايتعلق بذلك أيضاً. لايتعلق الأمر بعذابات الوحدة حتى ولا على النجاة.. الشيخ يقول: «المرء قد ينكسر ولكنه لايهزم أبداً».

ولأن الشيخ يعلم ذلك وهمنغواي كذلك.. فلن تكون نهاية الرواية سيئة؛

«الكتابة بقلم الرصاص، لها ايجابياتها» قال همنغواي ذلك منذ بضع سنوات. «المرء يستطيع امتحان الانطباع ثلاث مرات.. الانطباع الذي يود توليده عند القراء.. اقرأ المسودات وأحسنها.. ثم تكتب على الآلة الكاتبة. التحسين يستمر بعدها أيضاً.. ثم يأتي دور التصحيح.. بمقدوري التصحيح للمرة الثالثة. لي مجال ثلاثة في المئة مع قلم الرصاص.. أي أفضل من الآلة الكاتبة بكثير». عندما ينهي عمله.. لايفكر مطلقاً بما سيكتبه غداً، انه يخاف التعب قبل بدء العمل ولكن.. «في العقل الباطن يظل المرء يعمل باستمرار».

الشيخ كان قد قتل السمكة بالرمح، دماؤها صبغت البحر بالاحمر.. وسمك القرش بدأ يتواجد فجأة.. ويأتي الواحد تلو الآخر. انها أنواع مختلفة من سمك القرش. كلها.. لها شخصياتها، هؤلاء الممثلون بتراجيديا الحياة. جاء أول واحد منهم.. يا له من مقاتل.. يقدم نفسه.. فيقتل. وجاء الثاني فالثالث.. الشيخ يستطيع مقاومتهم «انهم يحصلون على ضربات قاتلة. «المعذرة.. أيها السمك» يقول الشيخ.

ويحل الظلام.. وتحت ستار الظلام تأتي أسماك القرش أفواجاً. الآن، ستكون أية مقاومة دون فائدة.

الشيخ لايعرف، بأن حياته تسبح بالخطر.. انه يشعر بوحدة كبيرة.. الآن.. لأنه يرى سمكته الكبيرة وما حل بها.. السمكة الجميلة الكبيرة التي يحبها والتي لن تبدو بعد الآن جميلة. ولايستطيع التحدث معها بعد الآن.. انه يحاول نسيانها.. يحاول النسيان انه اصطادها.

ومع ذلك.. فالرواية لاتنتهي نهاية سيئة. ولايجوز أن تنتهي برداءة، يظل هو المنتصر.. وبما أنه أضاع صيده وأتلفه.. فإنه لا يبكي ولا يتذمر لأن الشيخ يعلم بأن «رد المرء قد ينكسر ولكنه لايهزم أبداً». وبمعنى أحسن.. فالغد يوم جديد وبعد الغد كذلك.. على المرء أن يكافح باستمرار.. حالياً سيخلد للنوم.. ليستعيد قوته.. أثناء نومه يحلم بأيام شبابه.. وبالأسد الذي رآه في أفريقيا.. انه سعيد.. على الأقل بحلمه، ربما سيكون أسعد في حياته لأن الصبي (مانولين) سيقبل بالخروج معه للصيد ثانية.

همنغواي أنهى روايته.. بوضع اللمسات الأخيرة لها «أسوأ الجمل قمت بحذفها» انه يقوم بذلك بعد كل رواية «وأخيراً تخلص المرء من مسؤولية الكتابة الرهيبة» وما عاد من معنى للحياة بعد الآن.

همنغواي يعود للصيد.. ومقاهي (هافانا) ولأنغام (التانغو).. انه يشعر وكأنه «فارغ» وحزين لدرجة الموت.. ووجوده بات فائضاً.

أثناء ذلك تجمع النصوص التي تبلغ مئة وأربعين صفحة. انه لايفكر بارسالها الى نيويورك. انه حالياً لايريد معرفة أي شيء عن الرواية.

النصوص تصل بالبريد وبشكل غير (احتفالي) الى دار نشر «سكريبنر».

في آذار عام ١٩٥٢.. يتذكر العجوز سكريبنر بأن همنغواي قال قبل سنين عديدة بأنه كتب ونشر مقطعاً في مجلة (اسكواير) حول صياد عجوز... مقطعاً لايضم سوى بضعة سطور فقط. وأنه يود كتابة ذلك ثانية.

«كل ذلك من صنع الخيال، لكنه يملك خلفية واقعية» قال همنغواي آنذاك.

وصول النصوص أثار دهشة كبيرة.. «سكريبنر» والعاملون معه شرعوا يقرؤونها بمتعة كبيرة. السكرتيرة تقرؤها، حارس المصعد يقرؤها همنغواي. انها تمثل همنغواي جديداً.

انه ليس همنغواي الملاهي الليلية والملاكمة ومصارعة الثيران والنساء الجميلات والحروب والثورات. بل همنغواي البساطة والهدوء والكلاسيكية. بعد اسبوع أي في ١ ـ ٩ ـ ١٩٥٢ يصدر الكتاب بطبعته الأولى. وتوزع منه (١٥ ألف نسخة) تنفد قبل صدورها بثلاثة أيام.. بعد ذلك بأسبوع، تعمل المطبعة من جديد.. الكتاب الصغير يتصدر قائمة أشهر وأفضل الكتب لأشهر عديدة.

في أمريكا وفرنسا والمانيا وإيطاليا.. في كل مكان. أما همنغواي فيريد

نسيان هذه الرواية، فيغادر (هافانا) وساحة روايته.. البحر.. للصيد في شرق افريقيا.

في كانون الثاني من عام ١٩٥٤ يسقط بطائرة للرياضة في (البرت سيس).

ويعثر عليه أحد المراكب السياحية وينقله الى (بويتابا) حيث تنقله طائرة أخرى. وتشتعل النيران في الطائرة عند هبوطها. همنغواي ينجو مع زوجته في الوقت المناسب، لكنه يصاب في كليته ورأسه والعمود الفقري. ويصرح بغموض «لم يبق لي سوى خمس سنين للعيش، عليَّ أن أسرع». في السنة ذاتها يحصل على جائزة نوبل. ولم يستطع حضور حفل تسلم الجائزة بنفسه.. لم تكن قواه تساعده على ذلك.

كانت خيبة أمل كبيرة في لندن وباريس وهوليود بالنسبة للذين راهنوا إذا كان سيحلق ذقنه عند تسلمه الجائزة أم لا. ويسر كثيراً لحصوله على الجائزة «وأخيراً سأستطيع دفع ديوني» لكن سرعان ما يقع في التشاؤم. «إذ يشيخ المرء» قال لأحد أصدقائه «والظهر مهشم والجمجمة مكسورة والكلية معصورة فذلك يعني بأن المرء ليس في أحسن حالاته.. وما عدا ذلك.. أشعر بأني في حالة ممتازة». كان يرفض المقابلات «أنا لاأريد الدعاية».

ربما كان السبب يعود للضجة التي أحدثتها احدى الصحف الكوبية (إكسلسيور) التي ادعت بأن الصياد (ميغيل راميرز) والبالغ من العمر ٦٨ عاماً هو البطل الوحيد لرواية همنغواي. لأنه قد عاش هذه القصة مع سمك القرش فعلاً.. وأن همنغواي قد ابتاعها منه. والثمن؟ (السيد «واي» وعدني بشراء بنطلون جديد ومركب جديد حالما يصدر كتابه) هذا ما جاء في مجلة (أكسلسيور).

الغضب يتملك همنغواي.. عندما يقرأ المجلة.. فيسافر في اليوم ذاته الى قرية الصياد (كوجيمار) ويتحدث بنفسه مع الصياد العجوز. وكان قد حمل معه آلة التسجيل.. توخياً للدقة.

(راميرز) لايعرف أي شيء عن كلام المجلة الكوبية (أنا لم أذكر شيئاً كهذا، وكل ذلك مجرد اختلاق) صرح راميرز.

لكن المجلة تعتمد على وصف أخاذ لقصة الرجل العجوز وكيف خدع من قبل كاتب غني. والصحف العالمية التي تركض وراء الفضائح تنشر المقال بحذافيره.

وهاكم انظروا:

«ان العجوز (راميرز) بدأ يؤمن تدريجياً بهذه القصة. ألم يكن السيد همنغواي هو الذي التقاه في (بيسترو) وتحدث معه قبل عامين أو ثلاثة؟؟»

«ألم يعش في كوخ كالذي وصفه في الرواية؟ نعم، ألم يوجد صبي صغير ک (مانولين) في القرية؟ كما كان جميلاً.. لو أهداه السيد (واي) - لم يكن يستطيع لفظ همنغواي - البنطلون والمركب؟» الصحف تكتب لأسابيع عديدة.. وفي قرية (راميرز) سيتحدثون بهذه القصة لسنين طويلة.. هذا حسن بالنسبة للسياح.

والعجوز يقبض جيداً لقاء سرده (لحكايته مع همنغواي) الذي خدعه.. وكتب من خلال احدى مغامراته البحرية رواية عظيمة لاتزال تحتل مكاناً مرموقاً في قائمة الأدب العالمي.



اريش ماريا ريمارك
لا جديد في الجبهة الغربية

خلال ثلاثة أسابيع تنتهي النصوص ليلاً.. بعد عودة ريمارك من عمله. انه يكتب بعجلة ودون تفكير، وكأنه مصاب بالحمى. ينشط ذهنه بالقهوة المرة والسجاير الثقيلة. آنذاك كان يقطن في بيت من غرفة واحدة مع زوجته المصابة بالتهاب الرئة والتي سافرت بعدها الى (دافوس) لأن الغرفة المليئة بالدخان ما عادت تحتمل.

وريمارك لايملك نقوداً تكفي لنقلها الى مصح خاص. لا أحد يعلم كم من النقود كان يملك.. فمظهره كان دائماً أنيقاً. علاوة على بعض طباعه اللزجة التي كانت تولد سوء تفاهم واستفزازاً لدى البعض.

مهنته الحالية - محرر- في مجلة «الرياضة المصورة» مجلة الطبقة الراقية. محتواها لايتعدى وصف الاحداث الاجتماعية كالحفلات والمناسبات الكبيرة وسباق الخيل والخ..

ريمارك لم يكن ينتمي لهذه (الطبقة الأنيقة).. كلياً.. بل كان أشبه بمتفرج.

كان يعشق برلين ما بعد الحرب. ففيها كانت تُعرض أشهر المسرحيات وأوقح الكباريهات وأكبر مباريات الملاكمة، وسباق العدو لمدة ستة أيام. إنه يحب كل هذا. ويشعر بأنه ما كان يجب أن يكون كذلك بعد ستة أشهر فقط على انتهاء أشرس حرب في العالم. ما كان ليشعر بهذه الحدة لو كان قد ترعرع في برلين المدينة المجنونة.. لكنه مواطن مدينة صغيرة (أوسنابروك) والده كان يدعى ريمارك وليس كما ادّعت الصحف اليمينية المعادية لريمارك بأن اسم الوالد هو (كرامر). جده كان

يدعى ريمارك وكان بحاراً يحب المغامرة.. خدم في جيش الحماية بأفريقيا.. وطاف العالم كله.. ثم استقر بمهنته كمشرف في معمل للورق.. ولم يصبح رجلاً غنياً قط. الأم كانت دائماً تشكو المرض.. وقد فارقت الحياة وهي لاتتجاوز الثانية والأربعين، ابان الحرب عندما كان ريمارك سجيناً. كانت دائماً تفكر بأبنائها، وتريد لهم الأمان؛ ريمارك الصبي الأشقر الجميل كان عليه أن يختار مهنة أفضل.. معلم مثلاً.. تعني الضمان والأمان لكل حياته.. وتعني أيضاً الحصول على التقاعد مستقبلاً.

دخل ريمارك المدرسة الكاثوليكية التي تؤهله لتعلم مهنة التدريس.. وهناك تعلم العزف على الأرغن.. شهادته كانت تحمل درجات جيدة جداً. درس مهنة التعليم لمدة سنة ونصف السنة.. وبعدها اندلعت الحرب.. وعندما أنهى ريمارك دراسته تطوع في الجيش وأرسل الى الجبهة الغربية. وجرح مرتين. وانتهت الحرب.. إلا بالنسبة لريمارك. حتى المقربون منه لم يعرفوا مدى تأثير تجربة الحرب على نفسيته، وحتى بعد مرور سنوات عديدة على انتهائها، لم يستطع ريمارك أن يفكر بشيء سوى بالحرب فقط. انها الفكرة الوحيدة التي تسلطت عليه.

وعاد الى مدينته (أوسنابروك) وعمل مدرّساً في احدى القرى المجاورة.

لكنه ما كان سعيداً أبداً.. مهنته لم تكن تثير اهتمامه اطلاقاً. عزلة القرية أصابته بالكآبة، فقرر ترك وظيفته.. ليشتغل في مستشفى الأمراض العقلية عازفاً على الأرغن.

أما المحطة التالية، فكانت في مكتب صديقه.. الذي يبيع رخام القبور، وتماثيل تذكارية لجنود الحرب.. مهنة جافة لكنها لاتخلو من الاثارة.

أثناء عمله هذا، بدأ يرسل بعض كتاباته الى الصحف والمجلات.. لكنها لم تكن ذات تأثير كبير على ميزانيته. ألمانيا مازالت تسبح في أزمتها. اذا بعث بمخطوطتين الى مجلة ما.. يأخذون واحدة ويرجعون الثانية اليه.. وإذا أراد ارسالها لمجلة اخرى.. فان مصاريف البريد تكلفه أكثر مما يقبضه من أجر على المخطوطة الواحدة.

في القرية يشعر بالملل المميت.. في أوسنابروك كذلك.. فيسافر الى مدينة بالقرب من (هانوفر) وهناك يعثر على عمل في احدى شركات (الكاوتشوك). ويعمل في جريدة (إشوكونتينتال) التابعة للشركة ذاتها.

الآن ما عليه سوى أن يكتب ويحرر. وقد تعلق بمهنته هذه، التي أعجبته، وهو

مقتنع تماماً بأنه قادر على الكتابة. لكنه لايكتفي بالكتابة لهذه الجريدة فقط.. فيسافر إلى برلين. وهناك حالفه الحظ وعمل محرراً في جريدة «الرياضة المصورة» وبقي فيها. ومع أن مهنة الصحافة لاتغني المرء، لكنها تضمن له حياته بالشكل الذي طالما تمنته والدته له. وهو كان منذ طفولته الفقيرة يتمنى الحياة الآمنة المضمونة، ولكنه هنا في مدينة برلين الكبيرة بات يشتاق لخيالات الشباب وأحلامه، وفترة المراهقة.. فيكتب أثناء ليالي الأرق والتدخين: «حتى لو أعطينا اياها ثانية، هذه الطبيعة الخلابة لشبابنا، فلن نعرف ما نصنع بها. القوة الرقيقة والغامضة التي اجتاحتنا.. ليس بامكانها الآن الاحتمال والصمود. سنكون بها وداخل محورها.. سنذكرها ونحبها ونصاب بالانفعال عند رؤيتها. لكن هذا سيكون أشبه بمنظر الحزن والتمعن الذي ينتابنا عند رؤيتنا صورة لرفيق توفي. ها هي تقاطيعه وها هو وجهه.. والأيام التي أمضيناها معاً.. تكتسب لون الخداع والغش في ذاكرتنا».

هذا ما يكتبه ريمارك.. أو بالاحرى هذا ما يكتبه بطل روايته (لا جديد في الجبهة الغربية). شكل هذه الرواية هو أقرب الى المذكرات.. وتكتب بضمير المتكلم «أنا».

القصة تدور حول شاب يدعى (باول بويمر). ومثل ريمارك يتطوع للحرب وهو فتى صغير.. وأثناء الكتابة يتساءل ريمارك فجأة.. ما الذي يرعبه في برلين.. ما الذي يجعله لايشعر بالاطمئنان والراحة فيها؟. الناس الذين عادوا من الحرب يحاولون الآن وبنمط حياتي سريع ووحشي ودقيق أن يعوضوا ما خسروه في السنين الأربع من الحرب. هؤلاء الناس لايملكون شيئاً الآن.. هذا الجيل بأكمله قد دحر وهزم في الحرب (حتى الذين نجوا من قذائفه). وأثناء كتابته لهذه السطور.. يعرف ريمارك بأنه يكتب ضد الزمن.. الجيل الذي عاد من الحرب الى بيته. لايعدّ نفسه بأي حال من الأحوال «ضائعاً».

فان أغلبية الناس في المانيا يشعرون بارتياح كبير.. يقبضون نقوداً كثيرة... يرتادون المسارح ودور السينما.. السيارات تشترى.. والبيوت تبنى، فرق الجاز تعزف والرقص متواصل.. أكل وشرب.. المرء يتسلى.. يعيش ويترك الآخرين يعيشون.. شيء واحد لايريدون تذكره.. الحرب. لقد انتهت. الناس يحاولون نسيانها.. وتجنب ذكرها.. ريمارك يكتب ما لايريده الناس، يكتب أن جيله ما عاد حياً.. ولو أنه لايعلم بذلك.

ولكن أحدهم.. من الذين ينتمون اليهم أيضاً، ونجا من قذائف الحرب أيضاً.. يتحدث عن رفاقه.. الذين سقطو ا في الجبهة..

(اليوم سيحصلون على طعام وافر، لقد عاد من العملية ثمانون شخصاً بدلاً من مئة وخمسين). ها هو (مولر ف.) الذي مازال يحمل كتبه المدرسية. (لير) حامل اللحية الكثة وحامل الحب لفتيان الجيش.. والرابع هو (باول بويمر).

كانوا ١٩ طالباً من الصف نفسه، تطوعوا للحرب. مدرسهم كان يلقي عليهم محاضرات في الالتزام والوطنية ويدعوهم بـ (الشباب الحديدي)، الى أن تطوعوا في الجيش من تلقاء ذاتهم. مدربهم الضابط (هيملشتوب). كان يرهقهم باستمرار ويوقفهم لمدة ربع ساعة تحت البرد القارس.. للتدريب فقط. كانوا يكرهون (هيملشتوب).

ويختلف أسلوب التدريب عندما ينتقلون الى الجبهة.. عين لهم ضابط جديد وعسكري مخضرم يدعى (ستانيسلاس كاتشينزكي). ويصبح (ستانتيسلاس) الحامي والمرشد. وأخذوا يدعونه (كات).

من خلال عيني (بويمر) يعيش معارك الحرب ثانيةً.. الهجمات الأولى.. صواريخ تصبغ الليل بالضياء، الرعد ومدافع الدبابات.. وابل من طلقات الرشاشات الجافة. الهواء محشو بالبكاء والصفير.. الأوساخ تتطاير والشظايا تئز والأضواء الكاشفة تغمر السماء المظلمة، طبول نارية وحواجز نارية، ألغام وقنابل يدوية. إنها مجرد كلمات.. لكنها تشمل كل بؤس العالم.

(بجانبنا جثة انسان يرتعد خوفاً، رأس مفلطح، وجه معصور بين الأيدي، وخوذته متدحرجة جانباً. أكتافه النحيلة ترتجف.. حمى القذائف).

ودائماً جثث جديدة.. غذاء القذائف (وجوه شاحبة ملتصقة، أيد مسكينة ومتشنجة، والشجاعة تنتحب مثل كلب، بالرغم من التقدم والهجوم لكنهم يتوقفون فور النظر اليهم.. وجوههم الميتة تحمل تعبيراً شنيعاً.. كوجوه أطفال موتى..) طبول نارية.. الأرض تكاد تتشقق. في المقابر تهطل الأمطار بغزارة توابيت وموتى يتطايرون هنا وهناك.. (كات) يصرخ (غاز.. غاز.. انذر الجميع) ويهرع الكل الى الأقنعة الواقية. على الأرض مازال أحدهم ممدداً.. ووسطه عبارة عن كومة لحم واحدة.. انه ينشج (ابقوا هنا.. لاتذهبوا). (كات) يود أن يشهر مسدسه ويطلق الرصاص عليه.. جسده لايتحمل النقل.. انه يريد انقاذه من ساعاته الصعبة

الأخيرة.. فيقبل الآخرون.. وشيء من هذا القبيل لايقوم به المرء الا اذا كان بمفرده.. كات، يهز رأسه متألماً.. على هؤلاء الشباب المدفوعين الى الموت السريع. وتنطفئ النار.. ويهطل المطر بنغمته الرتيبة.. والجميع يعانون الاعياء والجوع. وهم محاطون بالموتى والجرحى (بشر.. منهم من كانت جماجمهم تسقط جانباً. وآخرون كانت أرجلهم ممزقة يتعثرون بلا شعور.. أحد الجنود يزحف على يديه ويجرجر ساقيه المهترئتين وراءه.. بشر بلا أفواه.. بلا وجوه).

(هيملشتوب) كان قد حقّر الكثيرين من هؤلاء البشر.. ومن بينهم كان ابن وزير، لكنه لم يكن يعلم بذلك.. وعرف بعد فوات الأوان. خسر منصبه وأرسل الى الجبهة. والآن.. ولأنه أصبح أكثر جدية.. أخذ يرتعد خوفاً بعدما أساء معاملة أحد هؤلاء الشباب (وجهه يعلوه الاضطراب، يعاني من الخوف. انه مازال جديداً هنا، ولكن ما يثيرني هو وجوده هنا.. بينما الشاب الصغير في الخارج).

أخرج انفث بوجهه. لكنه لايتحرك، الشفاه ترتجف فأكرر «اخرج» يحرك ساقيه ويسند نفسه الى الحائط ويكشر عن أنيابه كالحيوان. أمسكه من ذراعه وأبدأ بخضه كالكيس.. والرأس يتمايل يميناً وشمالاً.. واصرخ بوجهه (يا قذر.. ألا تود الخروج يا كلب، يا حقير، أتريد الهرب؟) انه يتجمد بمكانه.. فأخبط رأسه بالحائط «يا حيوان» وألكمه بأضلاعه «يا خنزير» وادفعه أمامي.. بضربة قوية على رأسه.

يمر الآن فوج جديد. بينهم قائد.. يرانا وينادي (إلى الأمام الى.. الامام، اتبعوا الآخرين) (هيملشتوب ينفذ أوامر القائد.. وينضم اليهم بعدما ينظر حواليه بحذر شديد. فأتابعه بنظراتي وأراه يقفز، ها قد عاد لرشاقته السابقة. بل انه يسبق القائد بمسافة كبيرة).

فرصة استراحة قصيرة. (كات) يقوم ببعض الألاعيب والحيل الفرنسية (يود المرء ان ينطفئ كل شيء، حرب، شناعة، بؤس.. ليستيقظ شاباً سعيداً).

(كات) يخلق الحاسة السادسة اذا اقتضى الأمر. في احدى المرات أتي بخنزيرين صغيرين وجعل الآخرين يجمعون البطاطا والجزر.. (كات) يقوم بشّي اللحم.. الجميع يحيطون به.. وكأنهم يحيطون برجل عجوز. حتى هيملشتوب كان بينهم مشاركاً.. فقد فمه الواسع نهائياً. في المقدمة هجوم.. وهجوم مضاد، بجانب المقابر تلال من الجثث. (الجو حار.. وهم متروكون دون دفن، نحن لانستطيع دفنهم، لانعرف الى أين نذهب بهم.. ستدفنهم القذائف).

(بويمر) يستنتج بأنه ما عاد يملك ارتباطاً حقيقياً مع موطنه.. ماذا يعرف هؤلاء من الحياة. اذا كانوا لايعرفون الموت؟ (من الآن، بدأ الوداع يندمج في.. والدتي تنظر إلي بصمت.. وتعد الأيام.. أنا أعرف ذلك).

وللمرة الثانية يصاب بويمر ويرسل الى المستشفى وهناك يفكر (عمري اثنان وعشرون عاماً.. ولكني لاأعرف الا اليأس والموت والخوف والمعاناة فقط. اني أرى، أن الشعوب تقتل بصمت، بطاعة، بسذاجة، دونمامعرفة، ماذا سيصنع الآباء اذا نهضنا وطالبنا بالانتقام؟ لسنين طوال كانت مهنتنا: القتل. ما الذي سنصبح عليه؟).

هذا اذاً ما يكتبه ريمارك خلال ليالي الأرق والتدخين. والتي ينشطها بأقداح القهوة. انه لايريد أن يشكو.. بل أن يخبر. فهو لا يوفر لنفسه شيئاً. انه يعيش الجحيم ثانية.. الذي يقبع خلفه كما هو واضح. والذي يعرف عنه بأنه سوف لايظل خلفه قابعاً اطلاقاً، انه يصف الشعور الذي تملكه.. عندما قتل ولأول مرة انساناً عن قرب وبوعي تام.. وكان ذلك دفاعاً عن النفس.

(الآن فقط، أرى بأنك انسان مثلي.. طالما فكرت بأسلحتك وقنابلك. الآن أرى زوجتك ووجهك يتحدان.. سامحني، يا رفيق، نحن نرى ذلك دائماً بعد فوات الأوان). انه يرى الرفاق وهم في المستشفى يصارعون الموت (أحدهم بدأ يغني بصوت عال ولمدة ساعة قبل أن يموت.. وغيره.. كان قد زحف الى الشباك، وها هو الآن ملقى تحته.. وكأنه أراد رؤية السماء للمرة الأخيرة). ويرث زوج أحذية من رفيقه. فهو لايحتاج لها بعد الآن. (قبل ان يفارق الحياة أعطاني حقيبته وحذاءه، الحذاء نفسه الذي ورثه عن رفيقه (كاماريش) انني انتعله الآن.. انه يناسبني تماماً.. بعدي سيحصل عليه «تيادين». لقد وعدته بذلك).

.. هذا التباين يتوارد خلال الكتاب كله. ماذا ستقدم الحياة بعد لهذا الذي يبلغ الـ ٢٢ عاماً.. ما الذي يستحق بعد؟ لقد أحب الفتيات الفرنسيات بما فيه الكفاية.. كان يحصل عليهن بلقمة خبز؟

فالأكل نفسه أهم بكثير. (باول بويمر) يحكي عن تلك المرة، التي قام فيها الرفاق بسرقة المعلبات الانكليزية والفرنسية والخنازير والبط. وبعد؟ فالجو العسكري لايرغم الشباب على الاهتمام بما يوليه رؤساؤهم لقضية الكرامة.انهم يجدون في ذلك دافعاً للسخرية.

ويقـول أحـدهم انتبـه، فنحن سنخسـر الحـرب لأننا نعـرف كـيف نلقي التـحـيـة العسكريةبشكل جيد. ورفيق لبويمر يقترح: (بلاغ الحرب النهائي عليه أن يتحول الى عيد شعبي.. مع بطاقات دخول وموسيقا كما في ساحة مصارعة الثيران.. أما على الحلبة فيقف الرؤساء والجنرالات من البلدين بلباس السباحة.. مسلحين بالعصي.. ثم يهمون بضرب بعضهم البعض.. ومن يصمد للأخير يكون هو المنتصر.. فهذا أبسط وأفضل من أن يحارب الناس هنا.. فيما بينهم). بويمر يستدرك الآن.. هؤلاء الجنود الأبرياء يشبهون الجياد التي لاتفقه ما يحصل، لو وقعت قنبلة ومزقت أحشاءها..

(انها لشناعة كبرى.. ان تكون الحيوانات في الحرب) يقول احدهم.

وببطء يتـخـذ بويمر.. يتـخـذ ريمارك قـراره، بصـدد الفـرنسي الذي قـتله (اليـوم أنت، وغداً أنا. ولكني يا رفيق اذا لجوت.. فسأحارب ضد هؤلاء الذين قضوا علينا نحن الاثنين.. أنت على حـيـاتك. وأنا ؟ على حيـاتي أيضـاً.. انني أعـدك يا رفـيق، فهذا يجب ألاّ يحدث ثانية..).

اذاً لا حــرب ثانيــة.. لا حــرب أبداً. ولكن، اذا انتــهت الحــرب.. ترى لماذا سيصغي هؤلاء الشباب الذين كبروا في الجبهة؟ ها هم يتناقشون حول ذلك.

نعم: سـيـشـربون أولاً.. هذا بدهي، ومن ثم يضـاجـعـون النسـاء (تخـيـل الأسـرّة المريحة) ولكن.. مـاذا سيـعملون بعدها.. كـيف ستـكون حيـاتهم اليـومـيـة.. هذا مـا لايعرفه أحد (ماذا ينتظرون منا.. يا ترى لو جاء زمن خال من الحرب.. لسنين ونحن مـشـغـولون بالقتل.. هذه مـهنتنا الأولى في الوجـود.. مـعـرفتنا بالحـيـاة تقـتصـر على الموت.. ما الذي يأتي.. أو يحدث بعده، ما الذي سنصبح عليه؟؟).

لا أحـد منهـم يريد الموت.. الجـمـيـع يأملون بالحـيـاة (الحـيـاة شـرك دائم ضـد تهديدات الموت). انهم يرقدون بالأوساخ، أيديهم متـشنجة ويصلون كي يبـقوا على قـيد الحـيـاة (ليس.. ليس الآن.. ليس الآن في اللحظة الأخيرة) بالرغم من كل شيء فهم يعلمون (لو عدنا الآن.. سنكون تعبين، ساقطين، محترقين. ودون جذور أو أمل سنضل طريقنا).

الختام.. بويمر يستشهد في اكتوبر ١٩١٨.. في يوم هادئ وساكن، النبأ اقتصر على الكتـيبـة فقط. ففي الغرب لاشيء جديداً يطلع عليـه. كان يرقـد على الأرض كالنائم، عندما أداروا رأسه عرفوا بأنه لم يتعذب كثيراً قبل مماته.. تعبير وجهه كان حاسماً وكأنه كان راضياً كل الرضا عما حصل).

كتاب حربي ضد الحرب. كتاب سلمي، السلم في نظر بعض الألمان آنذاك كان جرماً. هذا بالنسبة للقوى الشوفينية والرجعية.

(الفريد هوجنبرغ) صاحب دار للنشرتدعى (شرل) وباختصار.. هوجنبرغ رئيس ريمارك في مجلة الرياضة المصورة.

دار النشر (شرل) تطبع الكتب أيضاً. ولكن تحت هذه الظروف لا معنى لطبع كتاب ريمارك. ريمارك يبعث بنصوص الرواية الى أكبر دار نشر في ألمانيا (س. فيشر) فترفض طبعها. والسبب: (من يريد اليوم قراءة روايات حربية؟ وبالفعل، فان اختيار ريمارك لم يكن موازياً للزمن. ويحكي ريمارك لأحد الصحفيين بأنه ألف رواية:

«بماذا تنصحني؟»

«وماذا تعالج روايتك؟».

«الحرب».

«انصحك.. بأن تمزق النصوص فوراً».

الظاهر.. أن رواية (لا جديد في الجبهة الغربية) سوف لن ترى النور أبداً. فكيف طبعت؟ لقد كتب الكثير حول هذا الموضوع. وكيف وافقت أكبر دار نشر في المانيا (أولشتاين) على طبع الرواية.. الأمر كان بسيطاً. ريمارك كان له صديق من أقرباء (أولشتاين).. فأطلعه على الرواية.. ووصلت النصوص الى يد (فريتز روس) المسؤول في هيئة الرقابة داخل الدار. كان لديه وقتٌ كافٍ لمراجعة النصوص.. لأنه كان طريح الفراش.

بعدها.. عقد اجتماعاً مع المسؤولين في دار النشر، ووضع النصوص على الطاولة (ها هي نصوص ريمارك.. قرأتهاووجدتها مؤثرة بشكل غيرطبيعي. سيطبع منها على الأقل ١٠٠ نسخة) وأصاب التردد الجميع.. إلا مدير الدار (أولشتاين). (إذا رأيتم فيهامجازفة.. فالخسارة سأتحملها أنا على نفقتي الخاصة).. وبعد مناقشة دامت ساعات.. وافقوا على طبعها.

التقى ريمارك بـ (أولشتاين) وكان غير متفائل وأكد (لاأؤمن بنجاح كتابي.. من يريد اليوم أن يقرأ رواية تصف الجحّيم الأرضي؟) فرانز أولشتاين يبعث الرواية الى جريدة (فوس) التي تصدرها الدار نفسها.. واقترح أن تنشر كحلقات في الجريدة.. لكن الادارة عارضت وقالت ان الرواية غير مشوقة كي تنشر كمسلسل، والجريدة لاتنشر إلا لكبار الكتّاب.. أولشتاين بقي صامداً ومصراً الى أن فرض

ارادته أخيراً.

رواية (لاجديد في الجبهة الغربية) تظهر منذ ١٠ - ١١ - ١٩٢٨ في جريدة فوس. رد فعل الجمهور كان لايصدق. ما إن صدرت حلقتان من الرواية حتى بدأت برلين بأسرها تتحدث عنها. الأيدي تتلقف الجريدة والجمهور في ذهول تام.. من كان يعتقد أن ريمارك يتحلى بهذه القدرة.. هذا الانسان الهادئ.. من كان يؤمن بقدرته على تأليف كتاب قوي ومؤثر بهذا الشكل؟.

بلا شك، ان هوجنبرغ مستعد الآن أن يرميه خارجاً.. لكن ريمارك يقدم استقالته من تلقاء ذاته. ذهول في دور النشر الالمانية وكان الناس لايزالون يهتمون بقضية الحرب. انه أمر متوقف على كيفية كتابة روايات الحرب بالذات.

في هذه الاثناء.. دار النشر أولشتاين تستعد لطبع الكتاب. الطبعة الأولى خمسون ألف نسخة. لكن وقبل صدور الكتاب تظهر موجة وحشية موجهة ضد ريمارك، آتية من الرجعيين، آتية من هؤلاء الذين يحبذون لو ابتدأت الحرب ثانيةً، ومن رجال هوجنبرغ. ريمارك يوصف بالقذارة. هذا الانسان غير الالماني الذي ينتحل اسماً فرنسياً - هكذا تصرخ الصحف اليمينية - مع ان اسم ريمارك هو اسم جده.. واسم الكثير من الالمان. بل وتشكك بمشاركته في الجبهة. هذه الهجمات تتحول الى عامل دعائي للكتاب. الكتاب يباع بنجاح كبير.. ويضطر أولشتاين أن يستخدم مطابع أخرى لتساعده في الطبع. في عام ١٩٢٩ يباع منه في المانيا فقط ٩٠١ - ٩٢٥ ألف نسخة. بعد ١٨ شهراً يباع منه ٣ ملايين ونصف المليون نسخة. ويترجم الكتاب إلى اللغات جميعها تقريباً. بل وتطبع ايضاً نسخ لفاقدي البصر.. يسجل في كل مكان أرقاماً قياسية في المبيع. في أمريكا يحول الى فيلم سينمائي.

وعندما يعرض في برلين يتحول الى فضيحة كبيرة. (جوزف غوبلز) قائد ومؤسس المركز النازي في برلين آنذاك، يدفع (الشباب الهتلري) الى الهجوم على السينما، والقاء قنابل مسيلة للدموع، واطلاق فئران بيضاء بين مقاعد المتفرجين وسط هتافات «يا المانيا استيقظي»، والفيلم اينما عرض كان يثير الشغب واللغط.. مسؤول ادارة رقابة الافلام يصرح: (الفيلم يعبر عن شجاعة وعزم الجنود الالمان في الحرب العالمية) ثم.. يمنع الفيلم من قبل الرقابة العليا للأفلام.. هذا هو اول نصر حاسم (لغوبلز).

ويستدرك (غوبلز).. ان لاشيء افضل من أن «يتعلق» المرء بالنجاح حتى لو

كان بنذير مضاد. اذا هاجم شخصاً.. تكتب عنه الصحف يومياً.. فسيقاسمه الشهرة بشكل تلقائي.. ويحتل لنفسه اسماً في الصحف والمناقشات.

ريمارك أصبح غنياً بفضل كتابه الأول. ولكن ليس أسعد مما هو عليه.

هناك أسباب عديدة لذلك.. منها ما هي خاصة ومنها ما هي بطبيعتها عامة. أحد هذه الأسباب؛ ريمارك يرى بوضوح أكبر من الآخرين.. يرى النمو السريع للحزب (النازي). انه لايأبه ولايستغرب للرسائل المجهولة التي تصله.. ولكن عددها هو الذي يذهله.. انه مقتنع تماماً بأن (هتلر) سيستلم زمام الحكم بسرعة كبيرة.. وستكون حياة ريمارك حينئذ مهددة باستمرار. لماذا يتحتم عليه الانتظار الى ذلك الحد. ريمارك يسافر الى سويسرا ويبتاع (فيللا) صغيرة في (بورتو رونكو بالقرب من قرية الصيادين (اسكونا)).

ويصبح ريمارك أول منفي، بسبب هتلر.

غوبلز يكتشف أن جميع الكتاب المعروفين من الألمان.. لايكنون له التقدير، وأغلبهم منفيون في الخارج.. أو انهم قد انصهروا بالمنفى الداخلي. فتراوده أغرب فكرة.. ألا وهي جلب ريمارك الى المانيا.

ويبعث اليه بشخص مقرب (موثوق به) في حالة رضوخه سيشطب على الماضي.. كله.

ريمارك لايبدي أي استعداد لذلك. لا يريد التورط مع القوميين الاشتراكيين. وبعد مرور ثلاث سنوات على استلامهم للحكم.. تصدر في جريدة (فولكش بوباختر) قصة مطولة بعنوان (ليل في الجبهة) مرسلة من النمسا وتحت توقيع مستعار. وقد ارفقت بها حاشية تقول: «بعد أكاذيب الناس من أمثال ريمارك ننشر هنا تجربة انسان عاش الحرب فعلاً.. بعد قراءتها، لايستطيع المرء الا ان يقول هكذا كانت الحقيقة».

عندما اطلع غوبلز على الجريدة.. سال الزبد من فمه.. إنها جزء من رواية ريمارك نفسه. بعض الصحفيين النمساويين سمحوا لأنفسهم بهذه المزحة.. وبعثوا بجزء من رواية ريمارك.. بعد استنساخها.

العالم يحتفل بريمارك.. العالم المجاور لالمانيا يطبع له الكتب التي ألّفها فيما بعد.. رواياته ستترجم وستصور.. ريمارك يصبح من مشاهير عصره. انه أعلى ظفر لريمارك.

ولكن كل نجاحاته الشخصية لاتوهمه ولا تعزله عن الكلمات الحقيقية التي كتبها آنذاك في مذكرات الحرب. كلمات تحكي مأساة جيله.

(مأساة الذين تحطموا من الحرب - حتى ولو كانوا قد نجوا من قذائفها).



مرغريت ميتشل

ذهب مع الريح

طرحت (بيج مارش) السؤال التالي على نفسها: كيف ابتدأ كل ذلك؟».
كانت طريحة الفراش لمدة ٣ سنوات.. ثلاث سنوات بأكملها.. انه لزمن طويل.. وعليها القيام بشيء ما.

كيف حصل لها الحادث؟ كانت تقطع الطريق مع زوجها.. في احدى المناطق الراقية في مدينتها (أتلانتا).. طريق هادئ.. لاسيما في هذه الساعة.. الثامنة مساء.. فجأة تأتي سيارة مسرعة.. تتوجه نحوها بالذات وتظل هي جامدة بمكانها. وحبذا لو ظلت واقفةً. أخذت توجه يميناً وشمالاً. خطوة الى الأمام وخطوتان الى الوراء.. إلى أن وقع الحادث.

وها هي الآن طريحة.. تنتظر العملية الأولى.. والثانية والثالثة.. عمليات لاتنتهي.

وتتحول (بيجي) الشابة الحيوية الى امرأة لا تملك ذرة من الشباب مع أنها لا تشكو.. لكن وجهها الشفاف يفصح عن كل آلامها.

الأسابيع تمضي، الشهور تمضي.. ثلاث سنوات تمضي. فترة طويلة لانسان اعتاد الحركة والحيوية. معظم وقتها تقضيه في القراءة.. تقرأ دوماً تخطيط كلّ شيء يجلبه زوجها لها، تلتهم الكتب العلمية، فجوعها للقراءة لايعوض.

في احدى الليالي يعود زوجها محملاً بالكتب ويقول: (هذه آخر دفعة.. لم يعد في المكتبة ما تقرئينه) ويضيف مازحاً: (لماذا لاتؤلفين أنت بنفسك كتاباً حذي، هذه هي الأوراق وها هو القلم).

السيد جون ر.مارش من كنتاكي.. يعمل مديراً لمعمل توليد الكهرباء في أتلانتا.. وكان في السابق صحفياً. أي أنه ليس بعيداً عن التأليف والكتابة. أما زوجته، فكانت تعمل لمدة ست سنوات في صحيفة أتلانتا مراسلةً. فلماذا إذاً لاتقضي بعضاً من وقتها في الكتابة؟

(بيجي) المرأة الصغيرة ذات الشعر الكستنائي والعينين الزرقاوين والوجه الشاحب. عندمايراها المرء يعتقد أنها لاتعرف العد حتى الثلاثة.. لكنها بالعكس، امرأة ناضجة.. وناضجة جداً..

أخذت تفكر بكلمات زوجها. ولكن ماذا عساها أن تكتب؟ وحول أي موضوع؟ في الواقع، هناك موضوع واحد يثير اهتمامها. تاريخ بلادها. ومرحلة معينة في هذا التاريخ.. الحرب الأهلية.

(بيج) أو (مارغريت) المولودة عام ١٩٠٠ لم تغادر موطنها (جيورجيا) إلا عند ذهابها إلى أتلانتا. أجدادها كما تذكر عاشوا في (جورجيا) في الجنوب. كانوا مزارعين ومحامين وضباطاً وكهنة.

الأب، (يوجين ميتشل) كان محامياً معروفاً.. مختصاً بتاريخ الولايات الجنوبية. ولسعة معرفته انتخب رئيساً لـ (الجمعية التاريخية في أتلانتا). وكذلك الأم (مايبل ستيفنز) كانت تملك معرفة واسعة بالتاريخ، ولاسيما تاريخ الولايات الجنوبية الذي كان يعد الغذاء اليومي للعائلة كلها. أيام السبت والأحد.. تفتح النقاشات حول سقوط الولايات من الاتحاد، والأسباب الرئيسية. التي أدت للحرب الأهلية، والتناقض الاقتصادي بين الولايات الشمالية والجنوبية، والتجارة الحرة والحدود، وقضية العبيد، وانتخاب (لينكولن) رئيساً للاتحاد عام ١٨٦٠، والارتباط الكونفدرالي للولايات الجنوبية، واعلان الحرب في ١٤ -٤ -١٨٦١، والخسائر الكبيرة ما بعد الحرب، ومرحلة البناء. جميع هذه القضايا قد نوقشت ووضحت مئات المرات.

والمهم الآن.. هو اتخاذ القرار بتأليف الرواية، التي ستدور حوادثها في تلك البلاد وذلك الزمن.. وشخوصها سيطرحون مشاكل ذلك العصر.

انها تعرف، الانفجار الاقتصادي والنظام الاجتماعي والمرحلة الجديدة المضطربة التي أدت إلى المعاناة والبؤس والفساد.

ستدور الأحداث في مدينة أتلانتا التي تعرفها جيداً. ولكن، أهناك موضوع

محدد؟ هناك شيء من هذا القبيل، لا تعرف إن كان يستحق أن تدعوه «موضوعاً».

حتى أنها أخفت ذلك عن زوجها، وقررت البدء بالكتابة. أقلام الرصاص متوفرة ودفاتر مدرسية تعثر عليها في مكان ما. ولكن، من أين ستبدأ؟ تصاب فجأة بالخيبة لاتخاذها هذا القرار. كيف؟؟ وهي (بيجي) الصغيرة المراسلة في صحيفة أتلانتا. قمة نتاجاتها كانت لا تتعدى المقابلة الوحيدة التي قامت بها مع الممثل (رودولف فانتينو). والآن، تقوم بتأليف رواية.. ربما تتعدى المئة صفحة!! يا للغطرسة! أيام طوال وهي تنظر إلى دفترها ويفمها القلم، لا تجرؤ على كتابة أول جملة. الجملة الأولى.. الفصل الأول.. انه أشبه بالقفز في ماء متجمد. لا يعرف المرء كيف الخروج منه ثانية.

لا، انها لاتجرؤ على ذلك. الأفضل أن تبدأ من وسط الرواية. على الأقل أمام نفسها. وكأنها قد قفزت فعلاً في الماء المتجمد. وهكذا تبدأ مارغريت من النهاية، وبالجمل التي ستكون نهاية الكتاب. كانت مقتنعة تماماً بأن كتابها لن يرى النور أبداً. ولن تكتب فصوله الأولى.. ولا تعده سوى تجربة.. لقضاء الوقت لا غير.

فتصبح أكثر جرأة وثقة بقلمها. وتبعد الخوف عنها وتبدأ تخطّ بقوة. الجمل تكتسب موضوعاً والشخصيات تتبلور. وتنتهي من الفصل الأخير. وتبدأ بالفصل الذي قبله. وهكذا الى أن تصل الى البداية. انها لرواية حقيقية.

وها هي قصة (مارغريت ميتشل) التي تنسخها على ورق من مختلف الأحجام والألوان. وبأقلام الرصاص والحبر سواء.. الى أن تتكون لديها نصوص غريبة الشكل، تنمو وتتكدس يوماً بعد يوم.

(جرالد أوهارا) اللاجئ الايرلندي الذي دخل الولايات المتحدة عام ١٨٤٨، حط في مدينة (جيورجيا) وابتاع له مزرعة سمّاها (تارا) كان سعيداً بزواجه، ولديه ثلاث بنات. احداهن كانت تدعى (سكارليت) شعرها أحمر وعيناها خضراوان وذات طبع حاد.. منذ صغرها وهي تتحلى بصفة العناد. وفي سن الخامسة عشرة بدأت تدير رؤوس الرجال. انها (الملكة الصغيرة» في البلد. كانت دائماً وراء فسخ الخطوبات التي تحظى بها رفيقاتها. وفي السادسة عشرة تغدو امرأة ناضجة ولطيفة المعشر، وتعرف الحب بكل آلامه.

انه (اشلي ويلكس) الذي أحبته. انسان عاطفي وحالم. نموذج غريب بالنسبة لرجال عصره. لكنه يولي اهتمامه لصديقة (سكارليت) ميلاني، ذات الجمال الناضج.

تقرر سكارليت كسب أشلي بأي ثمن. وفي احدى الحفلات تدع كل ألغامها تتفجر.. أشلي يعترف لها بحبه لميلاني. سكارليت لا تصدقه، ويعتريها الغضب مما اكتشفته. حصل كل ذلك أمام (ريت بوتلر) الرجل الوسيم الذي تعشقه جميع الفتيات، ويدعونه معشوق المزرعة بأسرها. انه يتحلى بذكاء حاد ولديه خبرة كبيرة في ادارة المسائل التجارية.. ببصقه على الحياة يأخذ مركز الصدارة. سكارليت تعجبه.. ويعترف لها بذلك.

أشلي يتزوج من ميلاني.. وسكارليت تفقد أعصابها لأنها ما استطاعت الوقوف حيال ذلك. وتقرر الزواج من أول انسان يأتي طالباً يدها. ويكون شقيق أشلي، الذي ستعيش معه في أتلانتا. وسترى أشلي كل يوم.

وتندلع الحرب الأهلية.. أشلي وشقيقه يشاركان في الحرب.. ويستشهد زوج سكارليت، الذي كان على علم بأنه سيصبح أباً. ويعود أشلي في اجازة ويطلب من سكارليت الاعتناء بميلاني.

وبعد انقضاء فترة من الزمن تلتقي سكارليت لـ(ريت بوتلر) الذي انجرف لفترة في منزلق الحرب وعاد منه يملك ثروة لا بأس بها. وعادة يحصل (ريت) على كل ما يبتغيه. وتقترب الحرب أكثر فأكثر. ميلاني تنجب طفلها الأول. وسكارليت مازالت تعتقد أن أشلي لم يتزوج من ميلاني إلا لمجرد الضغوط العائلية. وهو لايزال يحبها. وما أملها الآن، إلا ميلاني التي أنجبت طفلاً لأشلي. وعليها هي الاعتناء بالأم والطفل معاً.

ويقترب العدو من أبواب أتلانتا، يقصف ويحرق. سكارليت تفكر بالهرب مع ميلاني وابنتيهما، فتنادي على بوتلر وتطلب منه المساعدة.

يتم الهرب بعربة نقل. كان هروباً فوق المنحدرات والأنقاض والبيوت المحترقة وتنجح عملية الهرب. (ريت بوتلر) يتخلى عن عناده.. وعن قناعته بأن هذه الحرب لا فائدة منها وأن الجنوبيين سيخسرونها، ويتخذ قراره بالدفاع عن الجنوب المهزوم. انه انسان غريب الأطوار ومليء بالتناقض ويضع قوانينه بنفسه.

وأخيراً، تكمل سكارليت رحلتها وبعد مغامرات عدة.. تصل إلى موطنها (تارا) معتقدة بأنها ستجد أهلها وبيتها الذي ترعرعت فيه. لكنها لم تجد سوى نصف بيت محروق، رماده يتطاير. الخدم السود قد فروا والأم توفيت والأب أصيب باختلال في عقله بعدما رأى بأم عينيه انهيار عالمه الوحيد.

ويهجم الجوع.. سكارليت تتضور جوعاً، وبيديها العاريتين تقوم بنبش الأرض لتستخرج منها البطاطا، معاهدة نفسها.. على ألاّ تجوع ثانيةً.

السيد (جون. مارش) كان يستعلم بين الفترة والأخرى تليفوناً عن زوجته ويسألها: «ماذا حلّ بروايتك؟».

«يا جون، إنها ليست برواية.. لم أكتبها إلا لقضاء الوقت!»

جون كان مقتنعاً، بأن زوجته ليست في الحالة التي تؤهلها لتأليف رواية. لذا يرفض التدخل، ولا يطالب زوجته بقراءة فصولها أمامه. وحتى لو أراد ذلك، فهو لا يستطيع قراءة النصوص بنفسه، لأن الخط رديء جداً، وعيناه ليستا بحالة جيدة.

أما مارغريت، فكانت تتنهد باستمرار. فتأليف الرواية أصعب وأشق مما كانت تتصور. انها تعرف كل ما يدور في روايتها: الزمن، المحيط، الوضع الاجتماعي.

لكنها تكتشف أن هناك أشياء كثيرة لم تعرفها قط.

حينماكانت مراسلة، كان لديها شعور كبير بالمسؤولية ازاء ما تكتبه. وما تحتاجه الآن، هو سبعة شهور للتصفح بالكتب التاريخية ومراسلة أكبر الجامعات المختصة، للحصول على الأرقام الصحيحة.

ويقوم زوجها بمساعدتها حانقاً «ليتني ما اقترحت عليك ذلك الاقتراح، ويسألها: «ماذا سيكون اسم الرواية؟». «ذهب مع الريح» تجيبه مارغريت. انه عنوان قصيدة للشاعر (أرنست دوسونز).

ذهب مع الريح.. العنوان وحده يشير إلى أن مارغريت لا علاقة لها بتلك المرأة الصغيرة (بيجي). أحرزت تقدماً ملحوظاً، أكثر من أهلها وأجدادها. ان ما حدث قبل سبعين عاماً لا وجود له اليوم، كما هو الحال بالنسبة للجنوبيين كافة. «الأمس» لقد ذهب بالفعل. كما تذبل أوراق الشجر وتذهب مع الريح. لقد كسبت شوطاً، لكنها مازالت تؤمن بأنها لاتستطيع أن تصبح روائية في يوم من الأيام: «أنا أنتج بشكل بطيء.. هذا لايسمى تأليفاً». في هذه الأثناء تتحسن صحتها وتقوم بنفسها بالأعمال المنزلية وتخرج مع زوجها للنزهة أو للسينما. والنصوص المهملة خلف منضدتها تنمو يوماً بعد يوم رغماً عنها.

«أعرف شيئاً واحداً» تقول مارغريت في أحد الأيام لزوجها «إذا انتهيت من كتابة هذه الرواية.. فلن أعيد الكرة ثانية اطلاقاً».

«كما تشائين» يجيبها (جون)، وهذا أنسب بالنسبة اليه. إنه لم يفعل شيئاً

غير أنه اقترح اقتراحاً.. وذلك لقضاء وقت فراغها.

الآن.. وقد تحسنت صحتها، فلا داعي لشيء من هذا القبيل. ولكن الرواية تظل أقوى منها ومنه. انها لا تعرف ما الذي يجذبها دائماً الى طاولة الكتابة.

ربما كانت بطلة قصتها (سكارليت أوهارا) التي تنوي انهاء قصتها.. ربما..

اذاً، تعود سكارليت الى موطنها فتجد البيت مهدماً والأم متوفية والأب قد فقد عقله فترغم اخوتها وترغم ميلاني على مساعدتها.. وترتب جميع الأمور بحيث يستطيعون السكن وملء بطونهم.. ملء بطونهم فقط..

ويعود أشلي من الحرب. وفي لمح البصر تغدو سكارليت سعيدة. لمحة بصر واحدة فقط. لأنه عاد الى الآخرين.. وليس إليها.

وتتدهور أحوال سكارليت المادية.. فتحتاج النقود لادارة المزرعة ولدفع الضرائب، فتعتزم الذهاب الى المدينة للقاء (بوتلر).. المسجون حالياً. سكارليت كانت بوضع يسمح لها حتى ببيع نفسها، فتقوم بتمثيل دور غرامي. بوتلر لا يأبه لها.. انه يعلم أنها تعاني الفقر وبحاجة ماسة للنقود.. وأنها لم تأت اليه بالذات بل من أجل نقوده. ويصارحها بذلك.

وتصاب بيأس ما عرفت له مثيلاً في السابق، وتتزوج من رجل آخر.. يملك ثروة لابأس بها، تكفي لدفع الضرائب وتدبير أمور المزرعة.

وتصبح تاجرة كبيرة.. تاجرة مندفعة، لا تتردد ازاء أي شيء يتعلق بجمع المال. وتقوم بتوسيع مزرعتها، وتبتاع طاحونة وتستخدم أشلي. لا يعيبها أن تستخدم حتى المساجين عندها. فكلما كانت الأيدي العاملة رخيصة ازدادت ثروتها. وكاد ذلك يقودها للخراب.

ففي احدى المرات.. ركبت عربتها وضد ارادة زوجها. فهاجمها لصان على الطريق، تخلصت منهما بالكاد، بعد عناء طويل. كل رجال الجنوب يعرفون ما يحصل بعد حادث كهذا.

ودون علم سكارليت، يلتقي (أشلي وبوتلر) بزوجها ويتفقون على القيام بمناورة ليلية. زوج سكارليت يقع في وسط الطريق.. ويصاب بجرح عميق.

ويقول (ريت بوتلر) ان سكارليت أخطر من أن تظل طليقة. انه لا ينسج الخيالات بخصوص حبه لها. انه يحبها فعلاً ويود الزواج منها. كي يضع حداً لتصرفاتها الحمقاء.

وبطريقة مفاجئة تقبل سكارليت بعرض الزواج. مع أنها لا تحب (ريت) انه يدهشها أو بالأحرى النجاح الذي يحرزه (ريت) باستمرار هو الذي يدهشها. تود اكتشاف سر النجاح هذا.

ويتغير (ريت) بعد الزواج.. هو الذي كان في السابق لا يأبه لكلام الناس.. يود الآن تغيير مجرى حياته فيترك كل الأعمال القذرة.. ويصبح مواطناً شريفاً.

الطفلة التي ولدتها منه سكارليت.. يريدها أن تنمو وسط حياة شريفة.

زواجهما غير سعيد.. سكارليت لا تحب زوجها ولا تجهد نفسها بإخفاء هذا الشعور. فتهم بطرد ريت من غرفة النوم التي يتقاسمانها.

حنقه على عدم جدوى هذا الزوج، وعلى زوجته التي مازالت تحب أشلي ينمو يوماً بعد يوم. في احدى الليالي يشرب ريت حتى الثمالة.. ويدخل غرفة النوم ويقوم باغتصاب زوجته انه لا يعلم وهي أيضاً لا تعلم بأن ذلك ما تحتاجه بالضبط.

الآن بدأت تحب زوجها. لكنه يقرر هجرانها بعد أخذ طفلته معه.. إلى لندن.

سكارليت تنتظر عودة زوجها بفارغ الصبر، انها تريد الآن أن تكون زوجة نافعة ومخلصة. انها تحبه لكنها لا تعلم بذلك.

ويعود زوجها.. وينشب سوء تفاهم بينهما.. فيفقد ريت أعصابه ويدفع بسكارليت من على السلالم. النتيجة كانت الاجهاض.

ريت يدرك ذلك متأخراً، ويندم لما فعله.

فأصبحا يعيشان كغريبين..

وتحدث تراجيديا جديدة.. ابنتهما تفارق الحياة بعد وقوعها من على ظهر الجواد التي كانت تمتطيه. سكارليت تضع اللوم على زوجها أو بدون مبرر تحمله مسؤولية موت ابنتها.

ويلي ذلك موت (ميلاني)، التي حاولت دوماً أن تكون صديقة لسكارليت.

ما أرادت يوماً أن تصدق الأقاويل التي تحكي عن أشلي وسكارليت. كانت تؤمن بزوجها. ريت المغامر، يعرف أفضل من أي انسان آخر قيمة ميلاني، وحزنه كان حقيقياً.

أصبح الطريق بالنسبة لسكارليت ممهداً.. هل سيرضى أشلي بالزواج منها، فيما لو تركت زوجها؟ بعد مرور عشر سنوات، ومازالت تحمل له الحب. فلابد أن تجد لديه قسطاً بسيطاً منه.

لكنه ما أحب يوماً امرأة غير ميلاني.. وبعد موتها لا يفكر بامرأة سواها. فجأة تكتشف سكارليت بأن هذا الحب ما كان حباً بمعناه الحقيقي وإنما حب الانتقام لكبريائها الجريح.

فمن هو الانسان الذي تحبه؟ انه ريت.. زوجها، الذي قرر الرحيل نهائياً.. وتحاول سكارليت ابقاءه، وتعده بأنها قد تغيرت، فلا يصدقها.. وحتى لو أراد ذلك.. فالأوان قد فات.

سكارليت، المرأة الجميلة والغنية.. تهجر من قبل زوجها.. وتتصرف سكارليت كما تتصرف دائماً إذا أصابتها محنة ما.. غداً، ستسيطر ثانية على (ريت بوتلر).

هل سيجد هذان المخلوقان المتشابهان طريقهما الى بعضهما البعض؟

هذه هي القصة التي ألفتها (مارغريت). كل شيء انتهى ماعدا الفصل الأول، الذي لاتجرؤ على كتابته. ولماذا يتحتم عليها كتابته؟ ما دام لاأحد سيقرؤه. حتى زوجها، لم يحاول ذلك. وليس هناك أي دار نشر لديها الاستعداد لطبعه. وإذا أرادت طبعه، فعليها اعادة كتابته، والتفتيش عن دار نشر مناسبة. مجرد الفكرة تجعلها تحمر خجلاً.

ماذا سيقول العاملون.. والسكرتيرات.. ماذا سيقولون لشخصياتها الخيالية، وأي شعور سيتملكهم ازاءها؟

لا، لا أحد سيقرأ «ذهب مع الريح».. وهذا قرار نهائي.

وتحدث المعجزة فجأة.

يظهر في أتلانتا صاحب أكبر دار نشر في أمريكا (هارول س. لاتام) باحثاً عن كتّاب ناشئين. ويتعرف بالسيدة (مارش) التي تصحبه للقيام ببعض الزيارات. وتخبره، بأنها قد ألفت رواية، فيرجوها أن تطلعه على نصوصها. لكنه عندما يرى علبتين كبيرتين تتأبطهما مارغريت، اعتقد بأنه سيغمى عليه، وحمل النصوص معه الى نيويورك سيرغمه على شراء حقيبة جديدة.

ويبعث النصوص لأحد المسؤولين في الدار، وهو يتخيل نص الرسالة التي ستصل لمارغريت تعلمها بعدم الموافقة.

في اليوم التالي، يظهر المسؤول بعينيه المنتفختين، ليقول ان الرواية ينقصها الفصل الأول: (أما أكون أنا أهبل، أو أنها آخر صرعة نشهدها هذه الأيام).

في الليلة التالية يتوصل السيد (لاتام) الى القناعة.. بأنه لا يجوز لمسؤول

كبير في الدار أن يكون أهبل.

وهكذا أصبحت الرواية، أو بقية الرواية.. من أشهر الكتب في القرن العشرين. لقد بيع منها في الولايات المتحدة ٤ملايين نسخة، في لندن وباريس مليون نسخة، وفي ألمانيا نصف مليون نسخة. ومارغريت تُصبح بين ليلة وضحاها من أشهر النساء، لكنها لاتعترف بذلك.

لا تسمح بالمقابلات والتصوير. لا تبني لنفسها بيتاً أو فيللا. ولا تبتاع سيارة أنيقة. انها تواصل حياتها السابقة.

وتتحول الرواية الى فيلم.. وتكتب مقالات عديدة حولها، تكفي لاصدار مجلدات ضخمة. أما مارغريت ميتشل فتلتزم الصمت.

ويقدم العرض الأول للفيلم في مدينة أتلانتا، وتدور حوله مناقشات طويلة، وكانت الحرب الأهلية قد اندلعت من جديد.. مع الفارق. هذه المرة، الجنوب هو الذي يكسبها. الجميع يتهافتون الى أتلانتا. أما مارغريت ميتشل فتقرر السفر. ويتحول الفيلم الى نجاح عالمي ساحق، وشهرة مارغريت تتصاعد يوماً بعد يوم، لكنها لا تعترف بذلك. عام ١٩٢٩ نقلت الى المستشفى بعد الحادث الذي وقع لها.

بعد عشر سنوات تصدر روايتها.. وبعدها بسنين قليلة وقبل أن تزحف أمريكا للحرب.. يصور الفيلم.

وكتابها يباع حتى ابان الحرب، وفي كل البلدان المشاركة في الحرب مع أمريكا.

مارغريت ميتشل تنسى.. كما أرادت بالضبط. وكل جهود السيد (لاتام) بالعثور على مارغريت تذهب سدى. وكل عروض هوليوود الخيالية لم تؤد الى النتائج المطلوبة.

الآن في ١١ -٨-١٩٤٩.. لقد مضى وقت طويل.. حتى أن مارغريت ما عادت تذكر.. حصل الكثير في هذه الفترة. الكثيرون قد مضوا. وما عاد هناك الا القليل الذين يعلمون بوجود مارغريت..

ففي يوم ١١- ٨ -١٩٤٩.. في الساعة التاسعة تماماً.. وبينما كانت مارغريت مع زوجها في شارع (بيج تري ستريت) في طريقهم الى السينما الواقعة على الرصيف المقابل.. جاءت سيارة أجرة مسرعة من اليمين. السيد (مارش) يظل واقفاً أما مارغريت فتتراجع مذعورة.. وتصدمها السيارة وتجرجرها معها ومن ثم تقذفها على بعد ٧أمتار. ويغمى عليها وسط بقعة كبيرة من الدماء. تنقل الى

المستشفى ويشخص الأطباء كسراً في العمود الفقري، كسراً في الحوض، جروحاً داخلية، وارتجاجاً في المخ.

في ١٦ -٨ -١٩٤٩ مارغريت تفارق الحياة وهي في التاسعة والأربعين من عمرها. بسبب حادث سيارة.. صممت على تأليف روايتها.. وبسبب حادث سيارة أيضاً.. تفارق الحياة.. ويطويها النسيان مرة أخرى. وتظل رواية «ذهب مع الريح» خالدة يقرؤها الملايين، كما يقبل الملايين على الفيلم المأخوذ من الرواية كلما أعيد عرضه، وكأنه يعرض لأول مرة.

توماس مان
أسرة بودنبروك



توماس مان شاب يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً يجلس وراء طاولته في بيت في شارع توري أرجنتينا ٣٤ مع أخيه هاينريش.. ويؤلف رواية.

انه يتأمل كثيراً.. فالكتابة أمر شاق، وهذه هي أولى رواياته.. انه يتساءل إن كان سينهيها.

في أحد الأيام يصله طرد بريدي من برلين من دار النشر (س. فيشر) تعلمه بموافقتها على طبع كتابه الأول. سيكون كراساً صغيراً يضم مجموعة قصص.. وعنوانه سيكون على اسم القصة الأولى (السيد فريدمان الصغير). أغلب هذه القصص قد نشرت سابقاً، في المجلات الأدبية. نعم انه قادر على تأليف هذه القصص القصيرة والركيكة نوعاً ما.. ولكن رواية؟ ربما تتعدى المئتين والخمسين صفحة! إنه أمر مشكوك فيه. ومضمون الرواية.. ماذا سيحتوي؟ انه سيدور حول توماس مان نفسه: «توماس الطالب الصغير الذي واجه الصعاب في حياته والذي ينحدر من عائلة من التجار الغامضين.. سيسمي توماس مان شخصيته الرئيسية (هانو).. في الواقع أراد أن يجعل منها قصة قصيرة وليس رواية. لكن الكتابة أمرها مختلف. بعض الكتاب لا يعرفون أين يتوقفون.. الشاب توماس مان لا يعرف حتى الآن كيف يبدأ إنه يقطن في روما ويؤلف كتاباً.. وهو الآن يقف ضد الكتابة عموماً. ولاسيما ضد الكتابة كمهنة. الكاتب أو الشاعر أهو مواطن معترف به؟ أيستطيع المرء كرجل كلمة أن يأتي بشيء.. كما أتى أجدادنا بالشرف والمال؟ أسئلة كهذه لا يمكن انتزاعها من دماغه.. مع ذلك فقد قدم استقالته من وظيفته في

ميونيخ.. بصورة فجائية، ويبدأ بكتابة القصة القصيرة وسجل في الجامعة كمستمع، لأنه لم ينه دراسته الجامعية لعدم حصوله على شهادة الاعدادية. بعد ذلك قرر السفر الى روما لأخيه هاينريش الذي قرر بدوره أن يكون مؤلفاً.. فوجد أن روما لا تناسبه أبداً.. لكن المرء لم يولد في «لوبيك» للاشيء. انه يقرأ كثيراً.. لقد ابتلع روايات (تورجنييف) و(تولستوي) وكان التأثير كبيراً.. ومن الواضح أن الصلة بين الروايات الكبيرة مثل (آنا كارنينا) و(آباء وأبناء) و(الحرب والسلم)، هذه الروايات الرائعة ذات الجمالية الفائقة، كانت تدفعه للصمت.. فهو لن يستطيع يوماً أن يؤلف مثلها. تنقصه الكفاءة والموهبة، والحافز بصورة عامة. ولكن ما الذي يستطيعه؟ إذا عدنا لحياته السابقة نجدها غير مشجعة اطلاقاً. لقد ولد في (لوبيك) وكان يحصل على كل ما يتمناه المرء.. كان يجيد العزف على الكمان.. لكنه كان غير نشط.. وفي المدرسة كان كسولاً جداً. كل صف كان ينهيه بثلاث أو أربع سنوات.

والده كان يدير شركة (للحبوب).. في احدى المرات أقيم احتفال بمناسبة (يوبيل الشركة). الصبي توماس مان يقول «رأيت صف المهنئين المنتظم، رأيت المدينة والميناء يعج بالأعلام.. ورأيت رجل الاحتفال المثير للاعجاب برقته المهيبة.. أبي.. يستعرض الأعمال البرجوازية.. منذ قرن.. فشعرت بانقباض في صدري.. في سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة يكون المرء أوعى بقدره من الناضجين.. لاسيما إذا قاموا بوضع آمال دون مقاييس على أحدهم.. فسيعلم المرء.. وبإصرار مؤلم أن هذا الأمل سيخيب».

بغض النظر عن شعورهم بالحط من شأن الحياة ومعاناتها.. الذي لم يكن ناضجاً بعد!

فهذه المقاطع القصيرة التي كتبها وعانى من أجلها كانت متميزة.. وضد القيم البرجوازية.. وهو الذي أراد دائماً أن يكون كأجداده! مواطناً جيداً.

ويسجل، أن الكتابة شيء لا يمكن التلاعب به.. انها ليست عملاً يختاره المرء متى شاء.. الكتابة هي اللغة بعينها! في مدرسته كانوا يصدرون مجلة فنية -أدبية مصوّرة.. كان ينشر فيها تحت اسم مستعار. وكان اختياره للمشاركة فيها غير خال من الوعي.. اسمه المستعار كان: (باول توماس).

عندما بلغ الخامسة عشرة توفي والده. أخوه هاينريش سافر الى (درسدن) لانهاء دراسة المكتبات فيها. أما والدته، فقد انتقلت بعد بيع الشركة الى

(ميونيخ).. توماس بقي في لوبيك لانهاء احدى سنوات دراسته. من ثم تبعها.. وعمل في احدى المهن الحرة.. وبعد ذلك سافر الى روما. وها هو الآن جالس ومنهمك في تأليف رواية.

في البداية كان من المقرر أن تكون قصة قصيرة. ثم.. رواية صغيرة كروايات الاسكندنافيين، أو روايات (رينيه مومبران) شقيق (غونكور) الأديب الذي عاش في القرن التاسع عشر وصديق كل من (فلوبير وموباسان وزولا). رواية ذات فصول قصيرة كرسوم الريشة أو سكيتشات لفنان انطباعي. إنها لا تعد أكثر من قصة قصيرة ولكن لشخصيات عديدة وأقدار وأحداث متباعدة.. انها رواية قام الأخوان مومبران بتأليفها.. فلماذا لا يقوم الأخوان (مان) بكتابة رواية أيضاً؟ هاينريش أبدى اهتمامه واستعداده.. لكنهما لم يتوصلا الى ذلك أبداً. فهاينريش كان يومذاك منشغلاً بأشياء أخرى. وتوماس شعر بعد تردد أنها مسألة تخصه هو وحده. القصة ستدور حول (هانو) الصبي الأخير للعائلة البرجوازية اللامعة (بودنبروك). ان هذا الصبي لم يخلق لهذه الحياة، فهو رقيق ويعاني من أقل شيء يواجهه.. المدرسة كانت تعني، غرفة تعذيب، وما من شيء كان ينقذه من حياته اليومية الا الموسيقا. ويصاب (هانو) بالتيفوس ويلزم فراشه... ويجري كل شيء بسرعة.. انه لا يريد الحياة.

(هانو) سيكون محور القصة، والأشخاص الآخرون.. العائلة، الأقرباء، الأصدقاء، سيكونون الخلفية.. والظلال.. ولكن، كيف البدء؟ (هانو) يشكل نهاية عائلة.. عائلة خائرة القوى.. تحتضر، تمحي من الأرض. انه لشيء محزن، بالنسبة للذي عاصر ازدهار هذه العائلة وتفتحها. مصير الصبي (هانو) هو نفسه مصير توماس مان.

سوف لن يروي قصة (هانو) فحسب، بل انه سيبدأ قبلها بكثير.. سينقب في العمق! ربما لم تكن الدوافع التي تحركه قوية بقدر ما كانت فضولاً لاكتشاف أسباب عدم تعلق (هانو) بالحياة. اذا اكتشف ذلك، فسيعرف سر كراهيته للحياة، ويأسه القاتل تجاهها. وهذا ما جعله يتجه الى التأليف ويحترفه كمهنة.. اذاً من أين البدء؟

عند أسرة (هانو)؟ هذا سيفسر وجود (هانو) بأكمله.. ولكن أليس من الأجدر أن نفسر عائلة (هانو)؟ هل يبدأ بعصر الأجداد؟ في الواقع عليه أن يذهب أبعد من ذلك بكثير، كريتشاد فاغنر الذي يعشقه توماس مان، عندما قام بتأليف (بتفسير) ثلاث أوبرات عن مقتل (سيجفريد). توماس مان بدأ يتخوف.. انها ستبدو وكأنها

رواية تاريخية. وبالفعل تبدو كذلك بتحضيراتها.. لقد وضع لائحة بأرقام السنين التي يستخدمها.. تاريخ ولادة وموت وزواج احدى شخصياته.. لائحة لكل شخصية، تكون في النهاية لائحة عامة. هناك أربع شجرات لعائلة (بودنبروك).. هناك تدوين لا نهائي لملامح الشخصيات. حتى النقاط السيكلوجية قد دونت وبعض المشاهد أيضاً. كل ذلك، تحضير لرواية لم يكن، قبل بضعة شهور، قد فكر فيها.

كم من التحضيرات ستكون ضرورية لتأليف رواية، أو قصة قصيرة؟! كم عليه أن يكون مزوداً بالمعرفة، حتى عن أقرب الناس اليه؟ وكان من الطبيعي أن تدور أحداث الرواية في لوبيك مسقط رأسه.. ومع هذا كم هي ضئيلة معرفته بمدينة أبيه. توماس مان يراسل أحد أقاربه، القنصل (فيلهلم مارتي)، ليستعلم منه كل شيء، ويحصل على أجوبه مفصلة عن تاريخ عائلة (مان) ومدينة لوبيك. لماذا يقوم القنصل بجمع المعلومات ويخسر من وقته الكثير؟ انه لا يؤمن ولو للحظة بأن الرواية ستنجز وترى النور.

ثم يتوجه توماس مان الى أخته (جوليا) لتعطيه كل المعلومات الممكنة عن خالته (اليزابيت هاج). ولم تخيب جوليا أمل أخيها. وبعد مرور أسبوع تكتب له كل ما تعرفه عن خالتها. ويستلم توماس رسالة مكونة من ٢٨ صفحة كبيرة. وتكتب له «أرجوك أن تكون حذراً.. باستخدام هذه المعلومات»، لأن كافة الأشخاص الذين تطرقت اليهم مازالوا على قيد الحياة، ولاسيما الخالة. هذه الرسالة تعتبر محفوظة ثمينة! توماس مان معجب بكل ما ورد في الرسالة.. واستخدم معظم ما جاء فيها تقريباً.. بل وكما اكتشف مؤرخو الأدب فيما بعد بأنه نقل جملاً طويلة نقلاً حرفياً. ومن أحد النماذج الثانوية (أنتوني بودنبروك) استلهم الشخصية الرئيسية التي سماها (توني). توماس مان بدأ الآن بتأليف الرواية بالرغم من اعتقاده بأنه لا يجيد الكتابة، وفي المحصلة الأخيرة تعدّ «تدريباً فنياً للأصابع» كما يقول لنفسه. انه يؤلف رواية حول عائلة بودنبروك التي يقف (هانو) في مؤخرتها. كتابته ترتكز على الأسس والمعلومات.. المعلومات التي حصل عليها، والمعلومات التي مازالت في ذاكرته. أثناء الكتابة تواردت الى ذهنه مسائل عديدة، لا يعرف إن كانت قد مرت به، أم أنها تناهت الى سمعه فقط: هل من الدقة أن يكتب المرء على ضوء المعلومات، أم على ضوء الواقع؟ أمسموح بذلك؟ الايجاد بدلاً من الخلق؟. الشاب توماس مان.. الساكن في روما ويؤلف رواية تدور أحداثها في لوبيك يشغل

نفسه بهذا السؤال.. شكسبير قام بايجاد مواضيعه وليس بخلقها، وشيلر وجوته وفاغنر.. وجوته تحدث عن خلق الواقع.. وتوماس مان يشعر بذلك بين الفينة والأخرى.. وشعوره هذا يتصاعد.. بأنه ليس خلاقاً فحسب وإنما هو خيالي مثير.. وكلما أزاح وشاحاً من الماضي عن ذكرياته، شعر بفرح لما تختزنه أعماقه.

لكن هذا العمل صعب.. صعب للغاية «مراقبة مصحوبة بالشفقة والبطولة.. وبالتضحية والحب..». الكتابة... أخذ توماس مان يتعلمها أثناء وضع كل سطر تحت الآخر.. الكتابة كالمرض. لقد سمع وقرأ حول ذلك.. ويعلم ما تعني الكتابة بالنسبة لدوستوريفيسكي ولاسيما لفلوبير.. انه يجربها بنفسها الآن.

وهكذا تتشكل أسرة بودنبروك.. ولوبيك تقام مرة أخرى أمام أعين توماس مان.. لوبيك المنسية منذ زمن بعيد. الأب الذي كان يقرأ لـ(زولا) في الخفاء، عاد الى دعوة الضباط والجنرالات وممثلي المسارح البلدية الى بيته الكبير.. والأم الهجينة المولودة في البرازيل لم تشعر يوماً بالألفة في لوبيك. البيت، الذي عاشت فيه عائلة (مان) أصبح الآن يعرف باسم بودنبروك. لوبيك.. قد ولدت ثانية، لكنها لوبيك الجديدة، ولدت في روما في شارع توري أرجنتينا ٣٤ في الطابق الثالث.

انها لوبيك المركبة نوعاً ما.. ينظر لها من الأفق الذي خلقه الكاتب بسخريته. الأفق يخلق من عمق الواقع أيضاً، الحقيقة ذات العمق الجديد التي خلقها توماس مان. ما من صلة بينها وبين مضمون الواقع الرمزي.. كما يذكر توماس مان فيما بعد.. واقع لوبيك لا علاقة له مع (لوبيك توماس مان).. أشخاصه تشبه نماذج عرفها، لكنها أعمق وأغنى.. المصادفة قلما تلعب بعواطفهم وتصرفاتهم. انهم يتصرفون ويفكرون ويشعرون لمقتضيات الضرورة في دواخلهم.. فهم لا ينتمون الى الواقع.. بل الى مبدعهم.

ويقرر توماس مان العودة الى المانيا ثانية الى والدته في ميونيخ.. ولكن ليس في بيتها ذاته.. بل يسكن في شارع السوق في شفابينغ ويقوم بتأثيث بيته ببعض أغراض والدته، سرير أحمر غامق، كرسي قديم، يطليه فيما بعد بلون أحمر فاتح.. منضدة للعمل، وبيانو مؤجر.. الحائط تطلى حواشيه باللون الأخضر. أما منضدة العمل.. فتزين بزينة احتفالية.. صورة لتولستوي مؤطرة بالزهور بجانبها ضوء قوي.. أمام الضوء وضعت أكوام النصوص مكتوبة على الوجهين.. على ورق ذي مربعات كبيرة.. السطور تميل للسقوط على جهة اليمين.

وقد طرأت بعض التعديلات البسيطة عليها. أحياناً عندما كانت (جوليا مان) تزوره مع أحد أقاربها أو معارفها، تعلق هامسة على هذه النصوص «هؤلاء سيصبحون أسرة بودنبروك». أكثر من ذلك لا تعرف! الأخ (فيكتور).. يصف في كتابه «نحن كنا خمسة» كيف كان توماس مان يجره للعمل معه وهو الطفل الصغير.. ويقول في احدى المرات «طلب مني أن أتخيل الموقف التالي: أحد البرجوازيين في ميونيخ تضبطه زوجته مع خادمتها.. اتهامات السيدة الأنيقة تغضب زوجها، فيصرخ فيها بكلام لا يمكن نسيانه، والعائلة تضطر فيما بعد الى التستر عليه.. والآن، ما الذي قاله في وجهها؟ يسأل توماس مان».

النصوص القيمة التي جلبهاتوماس مان معه من روما تصبح أكثر كثافة وحيوية.. كلما استمر في الكتابة، تبدو له صورة التأليف واضحة تماماً. انها لم تعد تلك المهنة المليئة بالمشكلات، ولم يعد المؤلف ذلك المخلوق الذي لا يحقّ له الغش... كالآخرين! الحياة أصبحت تسري كمادة خام بين يديه.. لتآليفه وشعره.

ربما يتعلق ذلك أحياناً بالبراءة والتلقائية.. مثلاً أن يساعده أخوه الصغير في ايجاد شتائم بلهجة أهل ميونيخ. ويتعلق الأمر أحياناً بشيء غريب أيضا.. مثلاً: انه عقد صداقة مع الكاتب (ارتور هوليتشر)، وفي الوقت نفسه ينفي كل شيء بما في ذلك الصداقة نفسها، ويقول بأنه أراد أن يجرب ردود فعل (هوليتشر) في هذا المجال، ومدى وقعها عليه. هوليتشر يتركه بعد نقاش طويل حول تصرفه الأخير وينزل الى شارع السوق. ويلتفت الى الوراء صدفة.. فماذا يرى؟ توماس مان يقف في النافذة ويراقب الصديق الغاضب بالمنظار.. انه يود معرفة كل شيء بدقة. توماس يملك بعض المال بعد بيع شركة أبيه.. لكنه مواطن برجوازي البذخ، وربما مواطن «تائه» بالنسبة لدور الكاتب القيم.

يبحث عن وظيفة في صحيفة كعامل مختص. كورت مارتنز -رئيس تحرير الصحيفة -يحكي بعد ذلك أن توماس مان كان قد قرأ له مقاطع من روايته بودنبروك.. «أراد أن يقنعني بأن ما كتبه هو أعلى مستوى من كل كتابات العصر، وعندما تعرفت على الفصل الأول.. أحسست بأني كنت مشدوهاً من شدة الاعجاب». الرواية كانت تدور أحداثها بين عام ١٨٣٥ ونهاية القرن التاسع عشر.

أربعة أجيال تبرز وتختفي..يتغيرون بفعل الزمن.. ويعيش المرء حياة أسرة. ولو أنها ليست من أرقى أسر المدينة -بسقوطها وتلاشيها واندثارها.. والمتبقون

منها لا يتعدون طبقة متوسطة المستوى.

السيد (يوهان بودنبروك) لايزال يضع الباروكة والرباط المزركش ويشم النشوق، ومازال ينطق الفرنسية.. وتجارة الحبوب درت عليه مبالغ كبيرة.

وقام بتوسيع الشركة.. انه لا يمتهن الا التجارة.. (ففيها يستطيع المرء أن ينام هادئ البال). الرواية تبدأ باحتفال عائلي بمناسبة تدشين منزله الجديد في (شارع منغ). ترف وقمامة ووجبات دسمة.. (غوتهولد) الابن من الزيجة الأولى.. تجرأ وتزوج وكسر حاجز الاحترام.. ويصبح يوهان، الوارث الوحيدة، متصلاً مع زوجته وأولاده الثلاثة، توماس. كريستيان. توني. القنصل يوهان بودنبروك، بسيجاره الغليظ، لم يكن صلباً كوالده.. لكنه انسان متفتح الذهن وواسع الأفق. اهتمامه كان ينصب على السياسة وتطورات آخر الأحداث، كانشاء جمعية الجمارك. وكان يعد الملك الفرنسي (لويس فيليب) مثالاً لقيادة الدولة.. في المسائل التجارية يجر ابنه الذكي توماس. أنا أحتاج الى الحماية.. واحترام الآخرين.. كانت معاملته لأولاده قاسية. الابن كريستيان لم يعر الشركة أدنى اهتمام.. فيقوم بطرده.. الابنة المدللة توني.. يجبرها على الزواج من رجل لا تحبه. توماس بودنبروك.. نموذجه -كان كوالد توماس مان تماماً- يكون السبب في انهيار الأسرة. توماس أكثرهم موهبة.. يدير الشركة بنزاهة كبيرة، ويصبح رئيساً للبلدية ونائب المدينة.. انه ارستقراطي ودقيق بشكل مخجل.. ببدلته السوداء والسيجار بين الأصابع العصبية المرتعشة.. انه كأجداده يصب اهتمامه على الواجب.. الواجب فوق كل شيء -أي الشركة-! انه يتحلى بشخصية مزدوجة، ولا يؤمن أن اليأس يأخذ به.. انه منهوك القوى وسريع الغضب، يقف بسنيه السبع والثلاثين في النهاية: «يتهيأ لي وكأن شيئاً ما يجوفني.. وكأنني لا أملكه بين يدي». غضب وسخط على الأخ كريستيان.. انه يرى كل نقاط ضعفه مجسدة فيه.. وهذا ما يجعل حياته مظلمة.. كريستيان لا يكن له الحب، ويقول الحقيقة: «انك معقد يا توماس.. احتللت مكانتك، لكنك تصد كل ما بوسعه أن يخل بتوازنك.. أنت أناني.. كم أمقت هذا الموقف وهذه الكرامة.. كما أمقت الموت نفسه..» من خلال زوجة توماس الهولندية (غيردا أرنولدسن) يسير دم الفن في العائلة. انها تحيا وسط مملكة الموسيقا وتكسب ابنها (هانو) بجانبها.. (هانو) هو الشخصية الرئيسية في الرواية.. طفل رقيق وضعيف البنية يقع في براثن هذه الأسرة.

الهموم التجارية والتفكير المتواصل بالارث يمتصان قوة توماس بودنبروك مبكراً.. انه أصبح حزمة أعصاب، لا غير. لقد تملكه هاجس مرضي في أن يغتسل دائماً.. وأن يشعر بالنظافة ويغير ملابسه عدة مرات يومياً.. ومع ذلك يجد أمامه جثة غير نظيفة ويصاب بالتهاب قوي في الأسنان.. فيذهب الى الطبيب. وفي الطريق ينزلق ويصطدم رأسه بشيء صلب.. هو الذي لا يحتمل ذرة التراب على ملابسه.. نراه ملقى وسطة بركة من الوحل.. قبعته ملقاة جانباً.. وقفازاه البيضاوان ملطخان.. ومعطف الفراء ملوث بالوحل. في لوبيك يهز الناس رؤوسهم: «المرء لا يموت من مرض في الأسنان؟ ولكن حتى لو كانت أسنانه حقاً هي السبب في وفاته أليس محتملاً، أن يكون قد مات لأنه ما عاد يؤمن بنفسه؟» ويأتي (هانو).. مازال طرح السؤال عليه مبكراً فيما إذا كان يؤمن بنفسه أم لا؟ ولكن شيئاً واحداً، وهو الأكيد.. إنه لا يؤمن بالحياة.. لايريدها ويصدها باصرار.. انه لا يصلح للحياة أبداً.. وليس مصادفة أن يموت وهو لايزال شاباً.. حتى لو كان مرض التيفوس صادفه، فقد كأن بامكانه أن يموت بشيء آخر. وبموته تفقد أسرة بودنبروك آخر وريث لها.. (هانو) يشكل النهاية.

أخته (أنتوني -تسمى توني) فشلت في حبها الأول.. فأرغمها الوالد على الزواج من رجل تبين في الآخر أنه محتال، واستهلك ثروة كبيرة. أما زوجها الثاني السيد (برماندر) من ميونيخ، فقدخانها مع خادمة المنزل.. توني، ما تبقى لها شيء تنتظره من هذه الحياة. زيجة ثالثة أصبحت مستحيلة.. شحة مواردها.. لا تسمح لها بذلك.. انها لاتريد أن تنهار أسرة بودنبروك الأصيلة.. فتشيخ ببطء وتتزوج ابنتها زيجة غير سعيدة أيضاً. كل مقومات اليأس كانت متواجدة أمامها.. لكنها احتفظت بتفاؤلها ولم تيأس.. لم تفقد شجاعتها للنهاية.. ولو أنها ذرفت الدموع عندما غادرها (هانو) وعندما غادرتها (غيردا) عائدة الى هولندا. عرفت فجأة أن كل الذين قضت شبابها معهم وأحبتهم قد غادروها.. لكنها بالرغم من كل ذلك ستواصل حياتها.

في خريف عام ١٩٠٠ انتهى العمل في الرواية.. فيقوم توماس مان بحزمها وإرسالها الى دار النشر (س. فيشر). لقد أراد إرسالها بالبريد المضمون.. لأنه لا يملك نسخاً أخرى.. انه يتمنى أن يؤمن عليها بألف مارك، لكن البريد يرفض عندما يعلم أن القضية تتعلق بأوراق مكتوبة فقط. توماس مان يظل متصلباً.. انه يستطيع

التأمين عليها بأي مبلغ.. البريد يرفض.. ولكنه يرضخ في النهاية. لأن القوانين تقف بجانبه.. في دار النشر هزوا رؤوسهم عند فتح الطرد البريدي.. قصصه القصيرة كانت ولاشك تحمل موهبة غير اعتيادية. لقد كانوا ينتظرون منه أن يكتب رواية.. ولكن أن تصلهم رواية مطولة! فذلك ما أثار استغرابهم.

في هذه الأثناء يكون توماس مان في الخدمة العسكرية.. انه لا يحب بدلته الزرقاء كثيراً.. عموماً أنه لا يحب العسكرية.. المارش العسكري الصاخب يشير فيه الاشمئزاز.. وينتابه الفرح عندما تصاب قدمه بالتهاب، ويبعث الى المستشفى.. ويصله هنا جواب الناشر، انها نصوص «جيدة ومثيرة ولكنها طويلة»، فيقترح عليهم اختصار النصف منها، قبل نشرها. أهو اقتراح معقول؟ من الوهلة الأولى لا يبدو كذلك. فتوماس مان أراد في الأساس أن يكتب مئتين وخمسين صفحة فقط.. وهذا مايكوّن لديه الآن ليس نصف بل ربع الرواية. وشرع يكتب لهم رسالة طويلة.. قد تكون الدار محقة ولكنه لا يتنازل. انه لا ينصاع الى شروطهم.. حتى لو حصل على المال. انه لا يعتمد على ذلك اطلاقاً.. أهي مصادفة أن يصبح الكتاب أكبر مما كان مفروضاً؟ كلا، توماس مان يعلم الآن أن التشعب والتفاصيل والتركيب لا يمكن الاستغناء عنها.. هناك مواد بالامكان معالجتها بالاختصار والحذف.

كل سطر من هذه الرسالة قيمة كما ذكر الناشر (س. فيشر) ومع ذلك لم يرد عليها بالسرعة المطلوبة!

في برلين كان التفاوض جارياً حول ثمن الـ(بودنبروك) لم يكن توماس يعلم بالضجة التي أحدثتها روايته في دار النشر.. كان يشكو لأصحابه بأنها استغرقت منه ثلاث سنوات.. بأكملها، ويخشى الآن ألاّ تصدر روايته.

ويترك توماس الجيش ويحال الى التقاعد بسبب مرضه. انه لا يقبل بكل الأعمال فيعود الى صحيفة simplicssmus بعدما يئس من (س. فيشر). ويستلم رسالة الدار من الأديب الألماني (موريتز هايمان) يعلمه فيها إذا كان يرغب في نشر الرواية فعليه أن يقبل ببعض التغييرات التي لابد أن تطرأ عليها. إنها ليست تغييرات جوهرية. ٢٣ صفحة يجب أن تختصر.. أو تعاد صياغتها ثانية. فيقبل توماس هذا الشرط.. الرسالة التالية التي تعلمه بصدور الرواية كانت من الناقد الموسيقي الشهير صاحب جريدة (نوين دويتش روندشو، أوسكار بي).

بودنبروك تصدر وتحتها عنوان صغير (سقوط عائلة) في جزءين.. الجزء الأول

يحتوي على (٥٦٠) صفحة والثاني على (٥٣٠) صفحة. والجزءان بسعر ١٢ «مارك» فقط. ولكنها لم تلق الرواج المطلوب. من يود اليوم قراءة رواية بجزءين؟ من يملك الوقت لتبني أربعة أجيال بأكملها؟ ومن يود صرف ١٢ «مارك» لشراء رواية؟ وتبدأ هجمة النقاد. صحيفة (فوسيشه تسايتونغ) تكتب: «الكتاب يسير كعربة نقل وسط الوحل.. والأحداث تسير ببطء شديد» الصحف الأخرى تكتب شيئاً مشابهاً.

بعض النقاد كانوا ايجابيين مثل (راينر ماريا ريلكه) في جريدة (بريمر تاجبلات) المحدودة الانتشار. ولكن تصريح (صموئيل لوبلنيسكي) فيها يشير انتباهاً كبيراً: «هذا الكتاب سينمو مع الزمن. وسيقرأ من قبل أجيال عديدة». هل هناك كثيرون اعتقدوا بهذا الكلام؟ على كل فتوماس مان ليس واحداً منهم.

إذا أوقفته احدى السيدات في أحد شوارع مدينة ميونيخ قائلة: سيد مان، لم أضجر من قراءة كتابك.. وبكل صفحة أستغرب لعدم ضجري» يعد ذلك إطراءً، فهو يعلم أن كتابه لم يبع منه خلال سنة كاملة سوى ألف نسخة. ولو كان يعلم بهذا الفشل مسبقاً لما قام بشطب شيء منه. حتى في لوبيك لم يكونوا فخورين به. كانوا غاضبين منه ويقولون: «ليس هكذا يعامل الوطن» كيف لابن السيناتور مان، العائلة الكريمة المحافظة، أن يجرّح فينا ويهيننا ويجعلنا كالقردة، بعدما أزاح أسقف بيوتنا وفضح للجميع كيف نأكل ونشرب ونتصرف ونتجول وننام.. «آه.. يا له من قرد» هكذا كانوا يصرخون. نعم، حتى أن أحد القساوسة الغاضبين يتحدث أمام المستشار ويقول: «إنها عائلة ساقطة!». مان أصبح في لوبيك شيئاً فظيعاً! رسائل تصله من الأقارب جميعهم.. الخالة اليزابيت تتعرف على شخصية توني في الرواية.. وتلوم ابن أخيها. لا يمكن بعد الآن أن تظهر نفسها أمام الآخرين.

في لوبيك أقيمت محاكمة الضابط (بيلز) الذي ألف رواية «من المعسكر الصغير» التي كشف فيها عن فضائح عديدة متعلقة بمدينته.. وذلك بدافع انتقامي. وقال الحاكم: «أنا اعلن أن بودنبروك توماس مان هي الشيء ذاته، أي انها رواية - بيلز» ويذكر توماس مان في احدى مقالاته «بيلز - وأنا»، انه يتطرق الى مدى حرية الاختيار لدى الشاعر - لاستخدام شخصيات واقعية في تكوين الحدث «هذاما قام به الجميع» يؤكد توماس «ليست معطيات الخلق هي التي تكوّن الشاعر وانما روحية المادة». وأمام الرأي العام يؤكد على كل ما توصل اليه: «حتى لو كان ذلك

يخص صورة أو لوحةً.. كيف؟ أليس ما أدعوه التعمق الذاتي هو الواقع، الذي يعد جزءاً من الملكية؟ أليس التوحد بين الشاعر ونموذجه يكسر حدة المعاناة؟، لماذا يشعر الأشخاص الذين استخدمهم كنماذج بالاهانة؟». ألم يتخذ من نفسه نموذجاً أيضاً.. وسيتخذ نفسه كثيراً كنموذج في المستقبل؟

الناشر س. فيشر رجل ذكي يملك حساً لكل الأعمال التي ستلاقي نجاحاً. كما أنه رجل ذو أعصاب قوية. الكتاب لم يلق نجاحاً.. لم تبع سوى نسختين أو ثلاث في اليوم؟ وأقل من ألف (بودنبروك) في السنةالواحدة؟ لكن.. هناك السنة القادمة والسنة التي تليها.. على المرء الانتظار فقط!

الأم (جوليا مان) لاتملك من الصبر كثيراً.. يومياً تقريباً تقوم بجولة على المكتبات، وإذا لم يكن كتاب ابنها بجانب كتب (فاسرمان) و(جرهارد هاويتمان) تدخل المكتبة وتسأل المشرف بلطف «ألا تملك رواية بودنبروك؟» «طبعاً.. طبعاً» و«كتاب هاينريش مان؟».

هاينريش مان أصدر في هذه الفترة روايته الأولى. والسيدة تريد الاهتمام والنجاح والاعتراف نفسه لولديها معاً. فاذا صادف وأطروا أحدهما.. تنتقل بالحديث عن الثاني مباشرة. نعم يا سيدتي انه موجود أيضاً. لماذا لاتضع هذه الكتب في الواجهة؟ وبعد برهة تعقب بوقار هادئ «أنا والدتهما، السيدة مان». يصرخ المشرف بفرح: «نحن لانضع إلا النسخ الجديدة.. ولكن إذا كانت السيدة الكريمة.. تود ذلك...» وبانحناءات تقليدية يوصلها الى الباب.

ولايفوتها أن تمر في اليوم التالي لترى إن كان قد وفى بوعده.. إلحاحها يزيد عندما ترى أن كتب أحد ابنيها قد عرضت دون الآخر. في إحدى المرات قامت السيدة مان بشراء بعض الحاجات.. ومن بينها مقص كبير مغلف بشكل رديء.. فأخذت تتفحص واجهات المكتبات كالعادة.. ورأت أن المعروض هو كتب لـ (غانغهوفر) و(شنتزلر) وما من أثر لـ مان. دخلت المكتبة وسألت سؤالها المعتاد ورأت المشرف على المكتبة يتصرف تصرفاً غريباً، ينحني تحت المنضدة ويمد يديه.. حين اكتشفت أن المقص قد جرد من غلافه.. لقد ظنها مجنونة هاربة.. جاءت تهدده.

كم سيلاقي بودنبروك من النجاح.. هذا ما لاتعرفه السيدة مان. وسوف لن تستطيع معايشة هذا النجاح.. نعم س.فيشر كان محقاً. في السنة التالية بيع منها ١٢ ألف نسخة وفي السنة الثالثة ١٥ ألف نسخة وبسرعة.. بدأ يصعد.

الخالة اليزابيت تهدأ عاصفتها وغضبها على (توني)، وبدأت تأخذ المسألة بمرح تام وتفهمت ببطء، بعدما أقنعها ابن أخيها بأنها أصبحت خالدة. بل وأخذت تتفاخر في لوبيك عندما أخذ الناس يدلون الغرباء على بيت توماس، أي بيت بودنبروك، ويقولون بفخر واعتزاز: «نعم توماس مان، ابننا من لوبيك». انهم يودون القول: لا غرابة في أنه يملك كل هذه الموهبة.

وينال توماس مان جائزة (نوبل). وقد بيع من بودنبروك أكثر من مليون نسخة.. ويأتي هتلر الى الحكم.. توماس مان الذي كان وقتذاك في الخارج يرفض العودة.. ومن تلك اللحظة بدأت الشتائم والتهم تنهال عليه.. من قبل أعضاء الحزب القومي الاشتراكي (النازي). وتقوم جامعة بون بسحب الدكتوراه الفخرية التي كان قد حصل عليها قبل ذلك بوقت قصير.

ولكن «بودنبروك» تظل تقرأ باستمرار.. قبل هتلر، وبعد هتلر، في المانيا وفي كلّ مكان..



هارييت بيتشر ستاو
كوخ العم توم

المرأة الصغيرة الناعمة ذات الوجه الطويل والشعر الأسود المتموج تدخل غرفة نومها. لكنها لاتخلع ملابسها بالرغم من شعورها بالتعب، فالليلة الماضية لم يغمض لها جفن، وهذه الليلة لن تكون أفضل حالاً. فهناك عمل ينتظرها.

كيف بدأت؟. تتساءل وهي خلف منضدتها جالسة ويداها الرقيقتان تضمان الأسطر.

كيف بدأت، ليس بالكتابة وانما بوضع الفكرة وربطها.. والتي لاتجرؤ حتى على وضع عنوان لها. بالأمس فقط بدأت الكتابة.. لكنها كانت قد شغلت بها منذ فترة طويلة.. أول رحيق الفاكهة.. التي هي الآن في طريقها الى النضوج سقط في روحها منذ زمن.

متى؟ وكيف حدث! (هارييت بيتشر - ستاو)، المرأة التي تعنى بشؤون البيت والزوج والأطفال.. تكتب روايةً؟

لم يكن هناك شي يشير الى مجيء هذه المرحلة.. وكلما فكرت هارييت بأن لديها عملاً ما.. تتوقف عن الكتابة وتحمرّ خجلاً.

لا، لم يكن هناك أي مؤشر.. وعموماً، فان حياتها كانت قد تطورت بشكل لم تكن تهتم به إطلاقاً.

والدتها توفيت.. فقامت جدتها برعايتها. الأخوة كانوا يدرسون والأخوات تزوجن. هارييت ذهبت الى اختها، وهي مديرة مدرسة في مدينة (هارتفورد).

وأصبحت هاربيت معلمة وهي في السادسة عشرة من عمرها. كانت تكتب النثر كسائر الفتيات الاميركيات آنذاك. حصلت على صفعة على خدها من اختها (كاترين) عندما عثرت على كتاباتها، مع أن كاترين كانت تعلم بأنه لايوجد أي شاب يمكن أن تثير هاربيت اهتمامه. وهاربيت كانت تؤمن بأنها لن تتزوج في يوم من الأيام ولن تنجب الأطفال.

وعندما سافرت إلى أبيها القس (بيتشر) في (سينسيناتي)في ولاية (أوهايو) قررت أن تظل عانساً طول حياتها.

في أحد الأيام جاء البروفسور في علم اللاهوت (كالفين ستو) مع زوجته (اليزا) لزيارة (سينسيناتي)، فأصبحت اليزا وهاربيت صديقتين.

وفجأة يخيم النبأ الحزين على الجميع: ليزا تموت بمرض الطاعون. (ستو) الأرمل أفرغ قلبه لصديقة زوجته.. وسمح لها بمواساته.. هاربيت كانت معجبة بفكره، وقدرته الرائعة على التعبير.

هاربيت عقدت قرانها على (ستو) وكان عمرها آنذاك سبعة وعشرين عاماً.

مرت الخمسة عشر عاماً التي تلتها بسرعة. هاربيت كانت من الصباح وحتى المساء مشغولة بعمل البيت والعناية بزوجها، وكان لها ستة أولاد. كانت بالرغم من ذلك تفتش عن (اهتمامات فكرية). كانت تكتب الشعر والنثر تنشر بعضه في الصحف. اهتمامها بقضية العبيد كان مستحوذاً عليها أكثر من أي شيء آخر. قضية العبيد اكتشفتها قبل سنين عند شلالات (نياغارا). كانت فتاة صغيرة عندما أخذها عمها معه الى هناك حيث رأت اعلاناً كبيراً يضم صورة زنجي وتحتها العبارة التالية: -

«جائزة ١٠٠ دولار لمن يعثر على «عبدي» همفري البالغ من العمر ١٧ سنة والذي هرب في ٢٢ اكتوبر».

أ.ف.غاينز

بون كاونتي - كنتوكي

أطرقت هاربيت برأسها مفكرة.. شعرت بأن شيئاً ما يجري على غير مايرام.. وليس كما ينبغي.. ألم يعلمنا الكتاب المقدس.. بأن البشر سواسية.. ولا فرق بينهم؟ ومع ذلك يوجد أناس يبيعون البشر ويشترونهم.

حتى في (سينسيناتي) كانت تسمع عن العبيد الفارين والمفقودين وعن

أصحاب المزارع القساة الذين يسيئون معاملة العبيد بشدة. يحكون لها عن هذا وذاك.. وكلهم من العبيد الذين لم تعرفهم قط. في ذلك الوقت كانت تعمل لديها مربية زنجية أيضاً. قبلت فوراً بالمربية الزنجية عندما أعلنت عن حاجتها لمربية. بعد أسبوعين شعرت هاربيت بقلق المربية وعدم هدوئها وصمتها الدائم. كان ذلك بسبب الخوف.. وسألت عن السبب. الزنجية الصغيرة انهارت وقالت: (لقد كذبت عليك، انني لست حرة، أنا عبدة، هربت، وأعلم بأنهم يلاحقونني، غدا أو ربما بعد غد سيأتون ليأخذونني معهم ويجلدونني بقسوة).

هاربيت طلبت من الزنجية أن تخرج من الغرفة.. لقد كان تأثرها عميقاً. إذاً، فإن كل ما سمعته، من قصص عن الزنوج وملاحقاتهم كان صحيحاً. الآن أصبح كل شيء أكثر قسوة ووحشية من ذي قبل - لأنه يتعلق بإنسان تعرفه شخصياً - المربية التي تعنى بأطفالها.

تحدثت بخصوص المربية مع زوجها وأخيها، فأخذوها في الليل الى صاحب مزرعة يدعى (فان ساند) الذي كان يخبئ عنده زنجياً يود تهريبه الى كندا.

هاربيت ارتاحت داخلياً.. لقد أنقذت الزنجية.. ولكن كم من العبيد لايزالون تحت قيود العبودية.. وكم منهم قد أعيدوا بالقوة؟. قلائل هم الذين مثل هاربيت وزوجها وأخيها وصاحب المزرعة (فان ساند) الذين يكونون مستعدين لأن يضحوا في سبيل القيام بعمل انساني. الرأي العام كان دائماً بجانب المستعبدين.

في أحد الأيام جاء (ستو) وقال: «لقد ألقوا القبض على (ساند) ورفعوا ضده دعوى لمساندته للعبيد.. وغرموه مبالغ كبيرة.. لقد حطموه». وصرخت هاربيت: لابد من عمل شيء ما ضد هذا الظلم. وأطرق (ستو) برأسه.. ليس هناك أي أمل لعمل أي شيء.

لم تنم هاربيت ليلتها. يجب أن أقوم بعمل ما. لن أسمح بحدوث مثل هذا الظلم. ولكن ما الذي كان باستطاعتها فعله. كتبت لأبيها: لقد كبرت في السن، أصبح عمري ٣٧عاماً، وعندي ستة أطفال.. ماذا تبقى لي من الحياة؟

بعدها انتقل زوجها للعمل في ولاية (ماسوشوسيتس) وبقيت هاربيت وحدها.. تفكر.. بما تستطيع عمله.. وما بوسعها تقديمه. في احدى المناسبات يأتي اليها قس زنجي يدعى (جوزف هانسون) فيحكي لها قصته.. أحد ممتلكي العبيد جلده بوحشية.. وأثناء الجلد كسر له عظام الكتفين.. وحوله الى كسيح.

وليصبح حراً.. اتفق معه على دفع مبلغ (٦٠٠دولار). جمع المبلغ بصعوبة بالغة. لم يكن يعرف أن سيده يود خداعه. فوقع.. ضاعف المبلغ.. المبلغ الذي لم يستطع (هانسون) ادخاره. فهرب الى كندا وأصبح هناك قسيساً.

هاربيت تكن الاعجاب لـ (هانسون) الذي يسامح سيده، بل ويصلي له يومياً.. لأنه يعتقد بأنه سينال عقاباً مريراً.

لكن، حتى (هانسون)، لاتستطيع هاربيت أن تسأله عما بوسعها عمله، لمساعدة العبيد. فهانسون يعرف شيئاً واحداً فقط.. الصلاة. في هذا الوقت تصلها رسالة من زوجة أخيها تخبرها فيها عن القانون الجديد ضد العبيد الفارين وتنهي رسالتها: «على الأقل تستطيعين أنت استخدام قلمك.. افعلي شيئاً لتعرف البلاد كلها كم هي بشعة عملية تجارة العبيد...».

هاربيت تقرأ الرسالة لأطفالها والدموع تملأ عينيها. والأطفال يسمعون ولا يقولون شيئاً.

الأم تطوي الرسالة بتأثر وتقول بحزم: «نعم، أريد أن أفعل شيئاً». كان هذا قبل ثلاثة أسابيع تقريباً.. وكثيراً ما فكرت وبكت أثناء هذا الوقت. وفي الليلة الماضية بالذات بدأت بكتابة القصة. الساعات الأولى كانت صعبة، دائماً كانت تضع الريشة جانباً. لقد كانت مجرد مواطنة عادية.. فيكف لها باقتحام عالم السياسة العليا ومحاربة تجارة العبيد؟ كانت تشك بنفسها.. لكنها تعلم بأنه واجبها.. وعليها المحاولة ولذا ستستمر بالكتابة.. زوجها غائب. هذا حسن، وإلا لكان منعها من الكتابة.. وعند منتصف الليل كانت اليد الرقيقة تخط.. لتكتب القصة التي لاتعرف عنها إلا القليل، عندما بدأت في كتابتها. في الحقيقة لم تكن تعرف منها الا النهاية.

في اليوم التالي تقرأ لأطفالها ما كتبته.. انهم يضحكون ويبكون. هاربيت تفكر: «لو كنت أستطيع التأثير على البلاد كلهابهذا الشكل». القصة التي جعلت أطفالها يبكون.. قصة بسيطة جداً، تدور حول العبد العجوز (توم) الذي يعيش مع زوجته (كلو) وأطفاله في كوخ صغير. توم انسان مؤمن وصادق. يعرف القراءة والكتابة بصورة تؤهله لقراءة الكتاب المقدس والتعمق فيه.

الفضل كان يعود لسيده صاحب المزرعة (شيلبي) الذي كان يعامله معاملة حسنة. لكن (شيلبي) كان يرزح تحت ديون كثيرة وعليه أن يسددها.. فيبيع اثنين

من عبيده. فيختار العجوز (توم) و(اليزا) اللذين تربيا على يديه ويعدّهما كأولاده تماماً. أليزا كانت قد تزوجت من شاب هجين (جورج هاريس) وأنجبت منه طفلاً (هاري). جورج يخاف من أن يباع فيهرب الى كندا. وتلحق به أليزا.. في الليل والضباب، عابرة النهر المتجمد وطفلها بين ذراعيها.. على الضفة الأخرى يستقبلها أناس طيبون ويأخذونها الى (فان ترومب) الذي يعيش مع أولاده السبعة وهم بدورهم يخفون العبيد مع أسلحة الدفاع عن أنفسهم. فيلتقي (جورج هاريس) زوجته وطفله، ويصل الثلاثة الى كندا بعد هروب خطر.

في هذه الأثناء يقاد (توم) والسلاسل الحديدية بيديه.

شيلبي يقسم على اعادته ثانية، إذا استطاع تدبير النقود اللازمة؟

أثناء السفر يطلب (توم) من حارسه أن يفك قيوده لينقذ الطفلة الصغيرة (ايفا) ابنة صاحب المزرعة (سيده الجديد) من الغرق. الطفلة تتوسل لأبيها لكي يشتروا (توم).

(توم) تغمره السعادة، وبما أنه مشتاق لزوجته وأطفاله.. فإنه سيعوض عنهم بالطفلة (ايفا) التي أحبها كما لو كانت طفلته. انها تعوض له السعادة العائلية. انه يحيا لها فقط.

ويتقطع قلبه عند رؤيته الطفلة دون أي مساعدة.. فقد أصابها السل. (توم) يقوم بحراستها ليلاً. ويصف لها الجنة وكيف ستكون سعيدة فيها. وتتوسل (ايفا) إلى أبيها، أن يعيد توم الى (كنتاكي) ثانية.

هاربيت تنجز الصفحات التي تصف موت (ايفا)... والتي أجهدت نفسياً بكتابتها. الكتابة تثيرها وكأن (ايفا) تحيا فعلاً، وليست من نسج خيالها، وكأن الموقف يدور حول طفلها بالذات. فتصاب بالحمى وتلازم الفراش. ويعود السيد (ستو) من (أندوفر).. ولديه الكثير ليقوله. وتمضي الأيام الأولى.. هاربيت يغمرها الفرح وتود إخباره بالعمل الذي أقدمت عليه.. وأنها كتبت شيئاً. وفجأة يرى زوجها المسودات على الأرض بجانب المنضدة. «ماهذا؟» ينحني متسائلاً. فتتلعثم هاربيت وتحمر خجلاً.. ويشرع السيد (ستو) بالقراءة. ويقرأ لساعات.. ويخلع النظارات ويفرك عينيه ليقول لها: «هذا شيء رائع.. يا عزيزتي، لم أكن أعلم بأنك تجيدين الكتابة». وتعتذر هاربيت قائلة: «أنا لا أملك أية موهبة، أنا أكتب ما رأيته فعلاً. ويصمت زوجها لفترة.. انه في غاية التأثر.

هربيت لم تكن قد رأت كل هذه الأشيـاء. وتبتسم فإن كلمة (رؤية) لم تكن تعنيها حرفياً. وتضيف: «ان الله يؤلف الكتـاب.. وما أنا إلا الأداة». وتكمل: «لو كنت أعرف فقط، أين توضع الفواصـل وكيف تكتب كل الكلمات المعقدة». هذا مع أنها كانت معلمة مدرسة. انه لمن الصعب كتابة قصة محزنة. أحياناً تكون مسلوبة الشجاعة عندما تفتش عن مخرج ما. وتكتب لزوجها الذي سافر مجدداً: «شيء ما لابد من توفره ويجب امتلاكـه إذا أردت الكتـابة.. غرفـة لي وحدي. سأفـتش عن سجادة رخيصة وبعض الأثاث المريح.. وأضع فيها نباتاتي.. لأكون راضية تماماً».

وتستـمر في الكتابة مع أن طعـمها مر.. انها ليست قصـة مرحة.. هذه التي اختارتها. الناس الذيـن تتحدث عنهم.. أوضاعهم سيئة. ولأنها تعايش هؤلاء الناس وتشاركهم معاناتهم.. تنسى كل دموعها.. ولاسيما فيما يتعلق بالعجوز الطيب (توم). انه لايعود الى (كنتـاكي) كما وعد (سانت كلير) ابنتـه سيمون. لأن (سانت كلير) يفارق الحيـاة وتباع المزرعة.. وكذلك العبيد، لمالك قاسي القلب هو (سيمون ليغري)، يمتلك (توم) بعد شرائه ويعامله معاملة بشعة مع أنه يقوم بعمله باخلاص. ولأن (توم) يتلقى الضربات بصمت يعـتقد (سيـمون) بأنه يستـخدم تعـويذة سحر تجعله لايحس بالألم.

«نعم» يقـول توم «الاله يسـاعدني». أما إذا أراد التدخل لمساعدة العبـيـد ولاسيما النسـاء منهم.. فيتضاعف الضرب من قبل (ليغري)، ويبغض (توم) أكثر فأكثر عندما يراه يصلي من أجله.

(ليغري) يملك السيطرة على الأجساد السودا ء.. ولكن ليس على الروح: «انها ملك الله». ويأبى (توم) الاعتراف، عندما تفر النسـاء ولايقول الى أين ذهبن. لقاء هذا يحصل على الجلد من (ليغري) لدرجة الموت.

هاربيت تنسى دموعها، عند وصفها لهذا الموقف.. ويبكي أطفالها في الليلة التي تقرأ لهم ماكتبتـه.. حتى السيد (ستو) تدمع عيناه. بعدها.. ستبكي أمريكا كلها لهذه القصة، والنصف الآخر من العالم.. سيبكي أيضاً.

قريباً.. وقريباً جداً.. سيسير كل شيء بسرعة..

والسبب تذكره هاربيت لصديقتـها (ماري دوتون) في رسالتـها: «عـملت ما بإمكاني لتشغيل فتـاة المانية قوية لادارة شؤون بيتي.. هكذا سيكون لي وقت أكثر للكتـابة.. لاأريد أن أكـون عبـدة للادارة المنزليـة، ومع ذلك أريد البـيت على أحـسن

وجه.. أريد وقتاً لي.. ووقتاً لتربية أطفالي.. لكني لن أقبر نفسي في غرفة الأطفال.. حتى بعد انتهائي من القصة». وتكتب لزوجها: «أصبحت أملك الآن، وربما لاتصدقني، شعوراً أكبر بالمسؤولية نحو عائلتي.. ربما لم يبق لي كثير من الحياة، ولكني أشعر وبقوة بانجاز العمل الذي اخترته بجانب الكتابة.. لاشيء هناك ألمع وأكبر في العالم.. وكل شيء يدور حول محور العائلة الذي أتوسطه أنا».

هاربيت لم تكمل النصوص بعد، لقد أنهت النموذج وبعثت به الى ناشر احدى الصحف في واشنطن. وهو انسان مؤمن طالما انشغل بقضية العبيد.. هاربيت كتبت له: «لقد جاء الوقت حتى بالنسبة للنساء والأطفال كي يرفعوا أصواتهم من أجل الحرية والإنسانية. فكل امرأة لديها مقدرة الكتابة، عليها ألاتتردد. وهكذا كتبت أنا أيضاً».

الدكتور بيلي) يقدم لها (٣٠٠ دولار) مقابل نشر ثلاث حلقات. في ٨ - ٥ - ١٨٥١ تصدر رواية (كوخ العم توم).. حياة الفقراء. كلاً، العنوان لايوحي بقضية العبيد.

وبعد الحلقة الثانية تصل رسائل المؤيدين والمناهضين على السواء. ثم تتوالى الرسائل بالمئات. (الدكتور بيلي) طلب منها اطالة الحلقات، وهذا يعني ليالي عمل كثيرة بالنسبة لهاربيت، تقضيها وراء مكتبها، وأياماً عديدة تضطرها لإهمال شؤون البيت: لم تكن هاربيت تتصور أن تأليف الكتاب يسبب كل هذا العناء لصاحبه. أعمال البيت كثيرة جداً.. أحياناً كانت لاتتوصل الى ارسال الحلقات في وقتها المحدد. فتضطر الجريدة الى الاعتذار لقرائها: (سنكمل مسلسل كوخ العم توم في الأسبوع القادم). والقراء متحمسون ومتشوقون لمتابعة القصة. انهم يعيشون من مسلسل الى آخر.

انهم لايعيشون حياتهم، بل حياة الناس المذكورين في القصة. وإذا تأخرت الجريدة عن إصدار المسلسل، تنهمر الرسائل بالمئات.. مستفسرةً عما إذا كان المؤلف مريضاً أو إذا وقع له حادث ما؟

وتصل أيضاً رسائل من نوع آخر.. لاسيما بعد الحلقة السابعة والعشرين عند وصف وفاة (ايفا) الصغيرة.. تصل رسائل من أمهات فقدن أبناءهن.

العم توم يعلم بأنه سيلتقي بـ (ايفا).. انه يحتضر.. ويظهر بعد فوات الأوان (جورج شيلبي) الإبن الوحيد لسيده القديم، ليعيده الى مدينته.

(توم) يرجو جورج ألايحكي لزوجته عن آلامه.. ويسلم الروح بهذه العبارة: «من يستطيع أن يفرقنا عن آلهنا العزيز».

شيلبي يطالب بجثة (توم) ويهدد بإقامة دعوى ضد (ليغري). ويضحك الأخير: شيلبي يستطيع الحصول على الجثة. أما بخصوص الدعوى.. فأين الشهود؟ ومن يجرؤ أن يشهد ضده؟: «كل هذه التعقيدات من أجل جثة عبد؟».

جورج يحفر (قبر) توم ويقسم له بأنه لن يهدأ إلا إذا انقرضت العبودية.. وتكريماً لروح توم سيطلق سراح كل العبيد الذين يمتكلهم. جورج هاريس وزوجته أليزا وطفلهما يرفضون البقاء في كندا، وينوون السفر الى افريقيا. (نحن افريقيون، أمريكا يجب أن تغسل عارها بإبقائنا كمستعبدين.. نحن لنا حقوقنا كسائر المهاجرين من الألمان والانكليز والايطاليين والسويديين.. ولنا كل الحق في اصلاح العدالة المعذبة، نحن نتمنى بلاداً لسائر العبيد).

هاريت لاتعرف بعد كنه ردود فعل الرواية. كل بيت أمريكي تقريباً أخذ يتناقش حول الرواية بعد قراءتها. والرواية تنتقل من يد الى يد. والقارئ يعبر بالدموع من شدة التأثر.

احدى دور النشر في (بوسطن) تود نشره ككتاب. السيد (ستو) يذهب بنفسه ليوقع العقد.

تكاليف الطبع تدفع هاريت نصفها.. والربح يتقاسمانه مناصفةً.

هاريت تغمرها السعادة. ربما باستطاعتها الآن أن تشتري الثوب الحريري. هذه كانت احدى امنياتها. (غودي ليدي بوك) احد أنواع (الانسكلوبيديا) تطلب من هاريت صورتها ونبذة عن حياتها.

كتبت تقول لهم: «انه لشيء مفرح، أن أصنف أنا ضمن النساء الشهيرات، وحتى عائلتي لو سمعت لضحكت لذلك. حياتي لم تكن مثيرة للاهتمام. قبل زواجي كنت معلمة. الآن أصبحت أماً لستة أطفال ولي مهام غير شاعرية اطلاقاً».

الناشر يقترح أن يصدر كتيباً صغيراً، لكن السلسلة تستمر بالصدور فيكتب لها: «هذا يكفي». والجريدة تعلق بأن السيدة (بيتشر -ستو) ستنهي كتابة السلسلة قريباً.

وتنطلق كلمة «لا» المزمجرة من قبل عشرة آلاف قارئ. بل ويقتحمون مبنى الجريدة أفواجاً. (بيلي) يحاول تهدئتهم: «سنستمر بنشر السلسلة». وفي ٢٠ - ٣

-١٨٥٢ يصدر كتاب (كوخ العم توم) بجزءين، كل جزء بـ ٣١٢ صفحة و٥ آلاف نسخة للطبعة الأولى. وفي اليوم الأول من صدورها يباع منها (٣٠٠٠ نسخة). وقوائم الحجز تجري على عذد الساعات.

في الأسابيع الثلاثة الأولى يطبع عشرون ألف نسخة، والمطابع تعمل دون انقطاع. لم تطبع في أمريكا أو في العالم كله هذه الكمية من النسخ.

في ١٨٥٢/٤/١٥، تكتب صحيفة لندنية: «على جميع الناس قراءة هذا الكتاب». أما هارييت فتجلس في بيتها الصغير تنظف وتعتني بشؤون البيت والأطفال.. مازالت لاتعلم مدى شهرتها. وتصلها رسالة من الشاعر (لونغفيلو): أهنئك على النجاح الكبير.. كتابك نصر كبير للتاريخ الأدبي. وما يخص الحس الانساني فانه يتعدى الوصف».

في ١٨٥٢/٥/١٥ تصدر (١٥ ألف نسخة) أخرى. انه حدث في تاريخ المطابع الاميركية لا مثيل له.

وأخيراً تستلم شيكاً من دار النشر، صعقت له العائلة. وحتى السيد (ستو) لم يكن يحلم يوماً بمثل هذا المبلغ.. الأطفال لايصدقون فيما إذا كانت هذه الأوراق نقوداً بالفعل، ولكن عندما تخبرهم الأم بأنهم سيقومون برحلة الى نيويورك، تنفرج أساريرهم فرحاً.

في نيويورك تكتشف هارييت حجم نجاحها. طلبوا منها المقابلات والتواقيع. الزنوج كانوا يتزاحمون لرؤيتها وتقبيل ثوبها.. وتقبيل الأرض التي تسير فوقها.

ويصبح شراء الثوب الحريري مستحيلا، لأنها كلما دخلت متجراً للملابس يهدونها الملابس بدون مقابل.. تقديراً لها.

فتمتلئ الحقائب وترسل الى الفندق.. لم يكن لدى الأطفال ألعاب بهذه الكثرة أبداً.

هارييت تود رؤية امرأة مشهورة آنذاك.. المغنية السويدية (جيني ليد).. كانت كل التذاكر مباعة.. فيسأل مدير المسرح، إذا كان بامكان السيدة (بيتشر ستو) مؤلفة «كوخ العم توم» الحصول على مكان؟.

«جيني ليند» غنت لها فقط.. ثم أخذت بيدها وقدمتها على خشبة المسرح.. فيهتف كل الحاضرين «ليباركك الله».

ستروي هذه الحادثة حتى في شيخوختها والدموع تترقرق من عينيها.

الآن هناك.. قصة العم توم.. أغاني العم توم.. مسرحيات العم توم.. صور العم توم.. أما في الجنوب فحملة حقد كبيرة ضد (هاربيت بيتشر - ستو). ويلقى القبض على (بيلي).. الصحف والاجتماعات السياسية تقر بأنه ما كان عليه أن ينشر شيئاً من هذا القبيل.. السخط يتضخم. (بيلي) يجب أن يدافع عن نفسه.. ويرفع (بيلي) يده:

«أيجب الدفاع عن شكسبير؟».

في الجنوب.. في المدن الجنوبية يطبع الكتاب بشكل سري. ويصادر من قبل رجال الشرطة. الاحتفاظ بـ «كوخ العم توم» يعد مسألة خطرة. حتى التحدث عنه بصوت مسموع ممنوع. الأمهات يحملن صور هاربيت الى أطفالهن قائلات: «هذا هو الشيطان».

وتستلم هاربيت بعد هذه الحملة رسائل تهديد من الجنوب. لكنها لاتسمح لها بالتأثير عليها، وتقرر السفر مع أطفالها الى مدينة زوجها (أندوفر).

في كل أنحاء العالم يترجم كتابها. وهاربيت تصبح بين ليلة وضحاها من أشهر النساء، فتعتزم السفر مع عائلتها الى أوروبا.

تسافر الى لندن.. عبر شلالات (نياغارا). وفي السفينة يأتيهم شاب صغير وأنيق، ويدعوهم بلطف لقضاء بضعة أيام في بيت عمه (جون كروبر) من أغنى العائلات في ليفربول.

فيأخذون مركباً صغيراً.. وعند وصولهم الى الساحل.. يسمعون أجراس الكنيسة.. انه يوم الأحد.

وترى هاربيت حشداً كبيراً من الناس على رصيف الميناء أتوا لاستقبال الركاب.. الشاب الأنيق يقوم بفسح مجال للمرور. وتكتشف هاربيت فجأة بأن هؤلاء الناس أتوا خصيصاً لاستقبالها. الرجال يرفعون لها قبعاتهم.. والنساء يبتسمن لها، وأجراس الكنيسة تدق لها. تركب عربة الجياد.. فيتجمع الناس حوله.. فتتوقف العربة عن السير.

هاربيت تشعر بالخوف، فكل الوجوه المحيطة بها متشابهة الملامح الى حد كبير.. صحية، نضرة وقوية.. وهي مازالت تشعر بالضعف جراء سفرتها البحرية.

وأخيراً تسير العربة في شوارع (ليفربول).. في كل مكان الرجال يرفعون قبعاتهم.. والنساء والأطفال يلوحون بأيديهم. الكل يحتفل بها في كل مكان.

باريس، المانيا، انكلترا.. وكان (تولستوي) و(ديكنز) و(وكارلايل) من أشد المعجبين بها.

هاربيت تصبح غنية ومستقلة، وبامكانها تحقيق كل رغبات العائلة. لكنها تصاب بخيبة أمل.. كانت تريد وضع حد أونهاية لتجارة العبيد، لكن، ها هي العبودية.. تزدهر وتمتد وكأنها ستظل هكذا دوماً.. ولن تتغير أبداً. ومن الطبيعي أن يكون الأمر هكذا.. ذلك أن نظرة أعمق تكشف أن الولايات المتحدة تقف أمام أزمة صعبة. فالمدن الجنوبية كعادتها دائماً، تقف بجانب العبودية وتجارة العبيد. والرؤساء الذين يحكمون هذه البلدان، لاينوون اطلاق سراح العبيد، لأنهم يدرون أرباحاً كبيرة.

في مايو ١٨٦٠ يختار الحزب الجمهوري رجلاً من (كنتاكي) مرشحاً له في الانتخابات الرئاسية. فيصرخ: المؤسسات العبودية مبنية على الظلم والسياسة السيئة. والحكومة لاتصبر علي تقسيم البلاد الى نصفين، النصف الأول يضم الأحرار والنصف الآخر يضم المستعبدين. فإما أن يقلص المؤيدون للعبودية توسعهم.. أو يرتفع عدد أنصار العبيد لدرجة تغطي البلاد بأسرها...».

هذا الرجل يدعى (ابراهام لينكولن) الذي أصبح رئيساً فيما بعد. اتحاد الولايات الجنوبية ينهار ويعلن استقلاله وتنشب الحرب التي تنتهي بتقهقر الولايات الجنوبية.

السناتور (هنري ويلسون) يدعو هاربيت الى البيت الأبيض لمقابلة الرئيس. (لينكولن) يستقبل هاربيت في البيت الأبيض.. وتشعر بضآلتها وضعفها عندما تضع يدها في يده الكبيرة لتصافحه.

«إذاً هذه هي المرأة التي أضرمت الحرب» يقول لينكولن.

المقابلة استغرقت أكثر من ساعة. وهاربيت لم تفصح عما دار من حديث بينهما.

في (٢٢ سبتمبر ١٨٢٦) يعلن لينكولن نداءه التاريخي بتحرير العبيد في الولايات الجنوبية.. وفرح عظيم يشمل البلاد.

في (اندوفر) يتجمهر الناس أمام بيت هاربيت ويهتفون: «ليباركك الله.. ليباركك الله».

وظلت هاربيت تؤمن للنهاية.. بأنها كانت مجرد الأداة التي استخدمها الرب لتأليف هذا الكتاب.



جورج سيمنون
مقتل بيلا

عندما يؤلف سيمنون كتاباً يتصرف وكأنه مسافر أو مريض. الزيارات غير مسموح بها، والرسائل لاتفتح، والبرقيات والتلفونات تظل دون جواب. الرسائل والبرقيات والمخابرات جميعها تظل مهملة لمدة أحد عشر يوماً: «في هذا الوقت أعيش كالراهب، بتوحد مطلق». زوجته الثانية (دينيس سيمنون) تقول: «هناك نمطان من الحياة التي يعيشها سيمنون. إما يكون قد ابتدأ بكتابة رواية، أو انه قد انتهى من كتابة رواية... ولم يبدأ بعد الرواية الجديدة». وقبل البدء بالكتابة.. يعرض نفسه على الطبيب. انه لايشكو من المرض! ولكن هل بوسعه تحمل أحد عشر يوماً جديداً؟

والأولاد، ألن يمرضوا في هذه الأثناء؟. انها فكرة لاتحتمل. وتعني الانقطاع عن عمله. والرواية سيتهددها الخطر. مجرد أن يبدأ بالفصل الأول.. نراه لا يغادر غرفته اطلاقاً.. إلى أن ينهيه. اما إذا حصل أي تشويش أو انقطاع، فإنه يرمي النصوص في سلة المهملات: «علي أن أعيد الكتابة ثانية.. وهذا ما لا اتحمله.. لذا، فاني لاأعود للرواية أبداً.. أبداً».

وينهي الطبيب فحوصاته.. الأطفال سيكونون على خير مايرام خلال الـ ١١ يوماً. أما سيمنون.. فليس من المستبعد أن يمرض، لأن ضغطه عال نوعاً ما. لكن الطبيب يعلم.. إذا انتهى كابوس الأيام الأحد عشر.. فسيهبط الضغط بشكل مخيف ثانية (ما الذي نستطيعه ازاء هؤلاء الكتاب؟ انهم مجانين). ويسأل الطبيب

«كم رواية ستنجز قبل قدوم العطلة الصيفية؟». «اثنتين» يجيبه سيمنون. «حسناً» يقول الطبيب وهو يعيد أجهزته الى الحقيبة: «سأسمح لك باثنتين فقط». ويعتقد المرء أن سيمنون يحضر لرواياته قبلها بفترة كبيرة، وهذا ليس صحيحاً. سيمنون لايفعل شيئاً على الاطلاق «إذا مرت فترة طويلة لم أكتب فيها، الأشياء الصغيرة تفرض نفسها فجأة.. رائحة الورود مثلاً أو كلمة ما.. وتحرك ماكنة ذهني. أحياناً تكون ورقة شجر أثناء سقوطها. وهذا يؤدي الى سلسلة من تداعي الأفكار. وينتابني القلق وأشعر بعدم ارتياح وأصبح مزاجيّ الطباع وفظاً. عندئذ أعرف أنه ينبغي على أن أكتب. عائلتي تعرف ذلك أيضاً. لأنني أصبح شخصاً غير مستحب».

كل شيء يمتثل في اللاوعي. حتماً تكون لديه عدة أفكار. اثنتان، ثلاث، وربما أربع. لكنها لاتكون موضوع الرواية، بل مشكلات حالية تشغله.

«قبل أن أبدأ بيومين اختار إحدى هذه المشكلات. ولاأعرف بعد.. كيفية تصويرها وتطويرها.. لاأعرف حتى أين ستدور هذه المشكلة. المصادفة هي التي تقرر. الجو مثلاً، إذا كان ممطراً أو مشمساً». وهذا ما يذكر سيمنون باحدى القرى في فرنسا، أو احدى المدن في ايطاليا، أو بأواسط الغرب في امريكا، أو بأحد المعامل في انكلترا، أو بفندق فخم في الريفييرا.

الان يعرف أين سيعيش أبطال روايته. وتبدأ بعض الشخصيات الفائضة داخل ظلمة ذهنه بالظهور. الذي سيعيشون بهذه المدينة أو بتلك القرية أو الذين سيعملون بهذا المصنع ويشربون بتلك الحانة. وفي احدى الغابات يمارسون الحب أو يقتلون بعضهم.

وتبدأ شخصياته بالازدياد... الى ثلاث أو أربع: «هذه الشخصيات لأناس عرفتهم، أو هم شخصيات قفزت من خيالي.. أو هم خليط بين هذا وذاك، أنا شخصياً لاأعرف بالضبط». سيمنون يدون ملاحظاته على أغلفة بحجم أوراق الطباعة ليعود اليها بعد ذلك. انه نوع من الحنين الصحفي ولى واندثر.

الصحفيون غالباً مايدونون ملاحظاتهم على أغلفة يجدونها مصادفةً في جيوبهم.

ماذا يدون سيمنون؟ ليس الخطوط الأساسية للحدث، فهي مازالت حتى الآن غير واضحة المعالم بالنسبة اليه. انه يدون كل مايتعلق بالشخصيات: مظهرهم،

وسنهم، وظروفهم، وعلاقاتهم العائلية، ولاسيما أسماءهم، التي ينقلها من دليل التلفونات. الأسماء عنده تحتل مكانة ذات أهمية. حتى خارطة المدينة يطلع عليها، ليوجه شخصياته بشكل صحيح. وهذا مهم جداً أيضاً. ثم..

«انها أشبه بالعملية الحسابية. أضع هذا الرجل أو ذاك أو هذه المرأة أو تلك هذا المكان أو ذاك ثم، كيف أقودهم للوقوع في المأزق أو الخروج منه؟. في الحقيقة، انني احتاج عند كتابة رواية جديدة.. لأخلاقية معينة، في ظرف معين يقود تلك الشخصية لليأس والحيرة. مثال على ذلك: موظف بنك يرى نفسه قد جرف بشكل مفاجئ.. ليس أمامه الآن سوى أن يصبح بطلاً أو مجرماً، ولو ظل موظف بنك فحسب، يعيش حياة الهدوء والرتابة. عليه أن يختار الآن. أيضحّي بحياته؟ أم يتخلى عنها؟».

نعم هذا ما لايعرفه سيمنون: «أنا أعرف أسماء شخصياتي وأعمارهم وعلاقاتهم العائلية فقط. لاأعرف ما سيحصل بعدئذ، وإلا لما أثارت كل المسألة اهتمامي! سيكون دافعاً باعثاً على الملل لو عرف المرء كل شيء».

في الساعة السادسة صباحاً يصحو سيمنون.. يحضر لنفسه القهوة.. ويأخذ فنجانه الى غرفة عمله.. الستائر تظل مسدلة. انه يحب العمل تحت المصابيح الكهربائية. غرفة كبيرة.. جدرانها مليئة بالرفوف التي تحتوي على مئات من الكتب.. طبية وقانونية وكل مايتعلق بقضايا الاجرام.

على منضدته دليل للتلفونات، وعناوين من كل عواصم العالم، وخارطة المدينة، التي ستدور أحداث الروايةَ فيها.. ومفكرة. فهو يقوم عادة بشطب أيام العمل بعد انتهائها. وأشياء أخرى: دفتر للتدوين، أقلام رصاص، أوراق، منفضة، وستة غليونات متعددة الأشكال. سيمنون يعمل لمدة ثلاث ساعات يومياً. أي انه في التاسعة صباحاً يكون قد أكمل ما يقارب العشرين صفحة والتي تكون فصلاً واحداً. دونما استراحة تستمر طباعته كطلقات الرشاش، إلا إذا قام ببعض التصليحات.. وأبدل الأوراق برشاقة كأي سكرتيرة محترفة. ويطبع نسختين من كل صفحة، خوفاً من أن تضيع احدى أوراقه.. مع أن ذلك ما حصل يوماً.

فترات الاستراحة لايقوم بعمل.. إلا إذا قفز وتصفح أحد القواميس أو المعاجم، أو خارطة المدينة ودفتر التلفونات. يجب أن يعرف دائماً موقع شخصياته وأين تتواجد بالضبط. وإذا كان عجولاً لهذا الحد فلماذا لايملي ذلك؟

«انني عـامل يدوي، أشـعـر بضـرورة أن أعـمـل بيـديّ» ذكـر ذلك يومـاً: «بل وأشعر أن علي حفر رواياتي على الخشب».

منذ صـباه كـان يشـعـر بضـرورة رؤية الناس واكـتـشـاف كل شيء عنهم وقـراءة أقدارهم - كـمـا يقـال - من وجـوههم. الأب توفي مـبكراً. العـائلة عاشت تحت ثقل العـلاقات البـائسـة. في (لوتيش)، قـامت الأم بتـأجيـر بيت كـبيـر واسـتـخـدمتـه كـ (فندق). النزلاء كان معظمهم من الطلبة الروس والبولونيين والرومانيين والهنغاريين. جورج الصـغيـر كـان مأخوذاً بهـؤلاء الأجانب، يسـتمع لأحاديثهم وفي أغلب الأحيـان لايستطيع تتبع الجزء الأكبر منها.

كـان يسـمـعـهـم يتـحـدثـون عن شكسـبيـر ودوسـتـويفـسـكي. وعند بلوغـه الثـانيـة عـشـرة تـعـرف على هؤلاء الشـعـراء. وأخذ يقـرأ كل مـا يقع بين يديه. وقـرر أن يعـمل بمهنة توفر له الوقت الكافي لتأليف الكتب.

مـاذا كان بوسعه أن يصبح؟ ضـابطاً أم كاهناً؟ كلتـا المهنتين لاتوفران له الوقت المطلوب لتـأليف الكتب. قـرر أن يعـمل في احدى المكتـبـات ومـالبث أن تخـاصـم مع مرؤوسه.. لأنه أفهمه بأن (اكسندر دوماس) كان كاتباً كبيراً.. لكن الأسطورة تحكي بأنه كـان يسـتـأجـر عـبيـداً يؤلفـون له رواياته. كـمـا لـو كـان لايعـرف الكتـابة والسـرعـة والوفـرة. وبعـد هذه المناقشـة فـصل جـورج من عـمله. وبدأ بالتـفـكيـر، فـيـمـا إذا كـان دومـاس فـعـلاً قـد اسـتـأجـر العـبـيـد؟ وإذا كـان الآخرون قـادرين على الكتـابة.. فلم لايكون هو كذلك؟

وذهب في اليـوم الثـاني الى صـحيـفـة (غـازيت دي ليـيج) وطلب العـمل فـيـهـا. الموضـوع: (دهس الكلاب). هرع جـورج الى الشـوارع وأجـرى مـقـابلات مع السـادة أصـحاب الضـحايا.. وكـتب مقالاً مؤثراً حول بعض الكلاب التي ذهبت ضـحيـة تحت عجلات السيـارات. رئيس التحرير سر للمقـال، والقراء تلذذوا.. المقال كان جميـلاً.. وإنسـانياً.

بعدها قرر السـفر الى باريس.. حيث تصدر الصحف الكبيرة. وقبلها أقدم على الزواج وكـان عـمـره تسـعـة عـشـر عـامـاً.. الأم اعـتـرضـت وتوقـعـت لهـذا الزواج عـمـراً قصيراً.. وقد كان كذلك بالفعل.

في باريس عـاش في غـرفـة على السطح، يكتـب كـثـيـراً، وأحـيـانـاً كـان يعـمـل سكرتيراً. لكن كيف كـان عليـه أن يفرض نفسه؟. وكيف السـبيل للحصـول على المال

كي لايجوع؟ الجواب على هذين السؤالين هو ذاته. الانتاج الكثيف. كان عليه أن ينتج أضعاف ما ينتجه الآن كي يحتفظ بمستوى معيشته، حتى لو باع ربع انتاجه فقط.

كان يكتب ما يقارب الثمانين صفحة يومياً. روايات، قصص، مقالات سلاسل، ويوقعها بأسماء أخرى: «اني احتفظ باسمي لأشياء أفضل.. في المستقبل». في هذه السنين يتملكه شوق واحد: «فكرت مراراً، كم هو جميل، أن يكتب المرء أقل من ثمانين صفحة.. ستين أو ربما أربعين صفحة يومياً».

اليوم حقق سيمنون هذه الأمنية.. وأخذ ينتج عشرين صفحة يومياً. وإعجاباً بنشاطه وسرعته في الكتابة تقترح عليه جريدة (اللوفر) أن يوضع في قفص زجاجي، في صالة التحرير، في مبنى الصحيفة، مع آلته الكاتبة، ويحوم الناس حواليه وهم يبدون اعجابهم به.

ووافق سيمنون.. لكن المشروع ظل فكرة لم تجد طريقها الى التنفيذ.

في السنوات التالية. كتب سيمنون عدة روايات، وكذلك أصبح لديه عدة أسماء، خجلاً مما كتبه. ولم يكن محقاً في ذلك.. فكل ما كان في هذه الروايات ساعده على شهرته في المستقبل. لم يكن يريد انتاجاً أدبياً بمعناه الحقيقي.. بل اعطاء القراء ما يحتاجونه.. التسلية.

وهذا ما نقله اليهم بطريقة تخلب الألباب. وسيمنون لم يكن يهيء لنفسه الاستراحة أثناء عمله أيضاً.. لم تكن لفصوله أو لرواياته نهايات.

كان يستمر ويستمر.. وكذلك القراء، ليعرفوا نتيجة ما سيحصل.. سمنون كان يستغل كل ثانية لمعرفة الناس ودراستهم.. كما تدرس المتاحف والمعالم الأثرية من العصور المندثرة. كان يلقاهم ويحدثهم في الطرقات، البارات، والحانات. ومن أحب النماذج الى نفسه هي تلك المخلوقات الغامضة: «الكاتب يجب أن يعرف حتى ما في قمامة الأوساخ» قال ذات مرة. « ما الفرق بين المجرمين وهؤلاء الذين يحافظون على القانون؟ هناك حقيقة واحدة، انهم ينساقون الى نقطة معينة.. التي تمثل حدود الاحتمال. نحن نشكر رداءنا الأبيض - إذا صح التعبير -أو قيمنا الاخلاقية العالية التي وفرت لنا الظرف، وكنا المحظوظين». النماذج الغامضة تثير اهتمامه.. ولذا يصبح توجهه نحو الروايات البوليسية منطقياً. وبطله انسان أرغم بحكم عمله على أن يتعاطى مع مثل هذه المخلوقات.

فإذاً.. بطل قصصه: شرطي! والأفضل: مخبر سري.
وهكذا خلق.. (الكوميسار ميغري)،

(جول ميغري) بطل الروايات العديدة التي كتبها سيمنون يتميز عن (شرلوك هولمز)، والقصص البوليسية الأميركية والانجليزية، بأنه لايصور بقالب البطل التقليدي.. بل هو انسان اعتيادي حاذق ولكنه لايأتي بالمعجزات.

إنه انسان فرنسي عادي، موظف، يركب الباص كل يوم الى مكتبه.. مسلح بالمظلة والغليون. يجلس كسائر المخبرين في غرفة مظلمة بالطابق الأرضي.. ومن صفاته الهدوء والوضوح، لايعرف المراوغة ولايتخذ التدابير ولايضع الأقنعة ولايحاول اخفاء نفسه. انه يستخدم الطرق التي يستخدمها أي رجل بوليس. الناشر الباريسي (أتام فايارد) سبق أن طبع لسيمنون روايتين بطلهما المخبر (ميغري). ولم يكن يتوقع لهما ذلك النجاح الساحق. كان مقتنعاً بأنهما لن يجدا الرواج المطلوب ويتمنى أن يكتب سيمنون روايات بوليسية كالآخرين تماماً. يجب أن تكون هناك جريمة وأشخاص عدة من المشتبه بهم إلا القاتل الحقيقي. وفي النهاية وبعد وقوع كل الأحداث.. يجب أن يكتشف القاتل ويلقى القبض عليه. ويصر سيمنون على أن هناك الكثير من المشبوهين.. وأن الشرطة سرعان ماتتوصل الى القاتل الحقيقي. ويتوقف الأمر على الاعتراف بالجريمة أو احضار الأدلة الكافية لذلك. ومايثير اهتمام سيمنون في الدرجة الأولى هو معرفة أسباب الجريمة. انسان عادي يصبح في لحظة مجرماً.

لكن الناشر يعرف أفضل من ذلك. والناشرون هم دائماً كذلك.

(فايارد) مستعد لطبع الروايتين وصرف بعض المال من أجلهما. أما إذا لم تلقيا النجاح الكافي.. فعليه (أي سيمنون) أن يفتش عن موت مضمون وأكيد لميغري. سيمنون يود تجنب ذلك، فيقيم في أحد المطاعم حفلة كبيرة، يدعو إليها كبار الكتّاب والفنانين وبعضاً من رجال الشرطة. كانت الدعوة تتسم بطابع بوليسي. في زاويتها يجد المدعو بصمات أصابع وبضعة سطور (تكريماً لميغري وجورج سيمنون). ويثير هذا الحفل.. ضجة حافلة. لم يأت الـ (٤٠٠) مدعو فحسب وإنما (٧٠٠) غيرهم. في اليوم التالي تتحدث كل باريس بطولها وعرضها عن (تكريم ميغري وجورج سيمنون). ويصبح ميغري شهيراً.. ويتحدث الناس عنه، ويود الجميع قراءة كتبه. وتحصل روايات ميغري على شهرة عالمية واسعة. لاتقارن الا بروايات

(أجاثا كريستي) و(ادغار والاس) و(كونات ندويل). وتترجم الى ٢٧ لغة.

سيمنون يكتب بطريقة أسرع.. لكن ليس بالسرعة التي ينتظرها القراء.

في بداية الثلاثينيات يشعر سيمنون بأن هذا النجاح لايخلو من الخطورة بالنسبة اليه. الجميع كانوا يقرؤون كتاباته بشوق وتلذذ، لدرجة لاتجعلهم يتصورون أن سيمنون بوسعه كتابة غيرها. أراد أن يثبت بأنهم ليسوا على حق. انه ليس بكاتب روايات بوليسية فحسب وإنما هو مؤلف قبل أي شيء آخر.

«كلاعبي السيرك أردت أن أفلح دون الشباك الوقائية.. دون ميغري والموتى والمتهمين والاستجوابات. اني ألقي بنفسي وسط ما يسمى بـ - الروايات البسيطة». وقد صرح في احدى مقابلاته بانه لاينوي تأليف روايات ميغري ثانية. لكنه يكتشف..انه كان قادراً على خلق ميغري.. قادراً وليس قادراً على قتله. حينما أقام حفل التكريم.. كان يؤمن بوجود ميغري كما لو كان حياً. وتجسد بعد ذلك بذهنه بشكل حقيقي. ميغري يلح على دخول حياة سيمنون. الأطفال كانوا يحيونه: «صباح الخير يا سيد ميغري».

ميغري يجب أن يموت. دار النشر تحصل على مئات الرسائل والمكالمات.. القراء يريدون المزيد.. سيمنون يقتنع أخيراً، رغماً عنه: «عليّ أن أؤلف ست روايات سنوياً على الأقل».

وهذا من السهل تحقيقه.. فهو لايحتاج لفحوصات الطبيب.. كان يبدو سليماً وعلاقاته مع الجيران طيبة.

الجيران يتغيرون بسرعة.. بالأحرى سيمنون كان يستبدلهم فقد ترعرع في (لوتيش) وذهب بعدها الى باريس ومن ثم إلى جنوب فرنسا. وعاد منها ثانية الى باريس .وعند الحرب أقام بالقرب من (لاروشيل). وفي عام ١٩٤٦ أبحر إلى أميركا وأقام في فلوريدا. بعدها بسنتين انتقل الى كاليفورنيا. وبعد انقضاء عام واحد ذهب الى (اريزونا).. وأخيراً استقر في (لاكفيل) وابتاع (مزرعة شادو روك) وبنى عليها منزله: «هذا هو بيتي السادس والعشرون» قال ذلك يوماً وكأنه يود الاستقرار نهائياً.

الجيران في (لاكفيل) كانوا يرون مؤلف ميغري ربّ عائلة جيداً، يهتم بالأمور المنزلية والحديقة والسيارة.. بعد الظهر كان يذهب للقرية مع زوجته أو ابنه (جون) أو ابنته (ماري - جو) يشتري الجرائد ويتسوق. وفي المساء كان ينهمك بأعمال

الحديقة. وبعد العشاء يقوم بالقراءة أو مشاهدة التلفزيون.

كلا، ميغري لم يكن ينهكه اطلاقاً. ولكن.. «كلاعب السيرك، أريد أن أفلح دون الشباك الواقية». وبعد مرور فترة: «رواياتي البوليسية على النقيض من رواياتي السابقة.. التي اعتبرها بمنزلة بحوث أساسية. الفرق هنا هو أشبه بالفرق الذي تحتويه تخطيطات فنان واحد. ميغري ليس بوسعه أن يضع نفسه مكان انسان آخر. يملك عينين ثاقبتين، يفهم إطار الجريمة ويستطيع حلها. لكنه لايستطيع فهم الآخرين. ولأننا ننظر من خلال نظرته، فلا قيمة لهذه الروايات.. عكس رواياتي الأخرى.»

والقيمة الانسانية لروايات سيمنون البسيطة، أو كما يدعونها بلغة المكتبات العالمية «الروايات النفسية» تشي بقيمة سيمنون ذاتها.

أحد عشر يوماً من التوحد.. والعيش، كراهب مخبأ بجلد انسان.

أحد عشر يوماً من العذاب الذي بات لايحتمل: «مهنة الكتابة، دعوة للتعاسة».

بماذا تتلخص مواضيع رواياته؟ إذا أراد المرء فهرسة موضوعات رواياته فسيشعر بقلة محتوى هذه الروايات.

في الأساس. هناك مايقارب العشرة موضوعات يعالجها سيمنون دائماً.

ويقوم بذلك عن وعي. ذات مرة ذكر حول موضوع الأب - الابن «تطرقت لهذا الموضوع لأول مرة عندما كنت في العشرين من عمري، والمرة الثانية، في الثلاثين من عمري، والمرة الثالثة، عندما بلغت الأربعين.. وسأظل أتطرق لهذا الموضوع دائماً».

ما يعالجه دائماً.. هو عدم التفاهم القائم بين البشر. كان يؤرقه وجود ملايين من البشر في هذا العالم.. مع أن التفاهم بين شخصين هو من الأمور العسيرة وشبه المستحيلة. انه من الموضوعات الكبيرة المفجعة بالنسبة اليه.

لن يتبقى سوى الهروب.. الهروب من الذات.. وهذا محال. أحياناً يقتصر هذا الهروب على الغوص بالكلمات الصادقة. وتغيير الحياة من خلال الساعات.. والبدء بجديدها.. دون التفكير بما كانت عليه.. وربما عدم البدء.. بل التوقف.

وهناك موضوع الخوف: كل شخصيات سيمنون تعاني الخوف. لكنها لاتعرف مما تخاف. انها تسكن بسجون الوحدة.. وتود الهرب منه.. طلباً للحب والتفاهم.. لكنها تظل حبيسة سجون «الأنا» ولاتستطيع الخروج.

«أعتقد أن أغلبية الناس اليوم تشعر بالاستلاب.. بالبحث المستمر عن ذاتها وذلك أكثر من أي وقت مضى»، يقول سيمنون. هذه المشكلة تعاش وتضاء برواية «مقتل بيلا» التي يؤلفها سيمنون في (لاكفيل). وأجواؤها شبيهة بأجواء القرية المجاورة.

(سبنسر اشبي) مدرس في احدى مدارس هذه القرية. القرية تمتاز بأصالتها الانكليزية.. أي بالحياة الجماعية. الكل يعرفون بعضهم وكل واحد منهم هو قريب أو صديق للآخر.

«جميعهم يكوّنون في الواقع، كما قالت كريستين، حياةً جماعيةً.. وماشعرت بذلك إلا قبل ظهر اليوم». كريستين.. الكبيرة بعض الشيء هي زوجة (سبنسر).

«انه ليس من (كونيكتيكوت) بل من (فيرمونت) نزح الى هنا عندما كان عمره أربعة وعشرين عاماً، ليتسلم وظيفة مدرس». كلا انه لاينتمي اليهم.. الآخرون ما أشعروه بذلك قط.. لكنه وبالرغم من ذلك يعيش في سجن الوحدة، الذي لايستطيع اقتحامه. ثم.. يتقصد الآخرون أن يشعروه بسجنه هذا.. لأن ما حدث كان شنيعاً.

(بيللا) بنت السابعة عشرة من عمرها وابنة احدى صديقات كريتسين، تستأجر غرفة عندها. وفي أحد الأيام يجدونها مقتولةً.. خنقاً. ولم يكن في البيت سوى (اشبي). وتؤكد الشرطة: «في هذا الشهر يكون قد مضى ثلاث وعشرين سنة دون أن نشهد جريمة كهذه». وتثبت الفحوصات.. أن بيللا لم تكن فتاة عذراء كما اعتقد اشبي وكريستين. بل وكانت مخمورة قبل وقوع الجريمة.

من هو القاتل؟

أشبي كان طول الليل في منزله. ويستطيع دعم كل ما فعله في هذه الليلة بالأدلة. الجريمة حصلت بالقرب منه. الآخرون لايصدقون ذلك تماماً: «ما سر شعوره بالذنب إذاً، لو كان بريئاً حقاً؟». الاستجواب المتواصل يقوي هذا الشعور لديه.. وينتابه الشك.. لماذا يبتسم المحققون ابتسامة ذات مغزى؟ ولماذا لايناديه محامي التحقيق باسمه؟ (ليس لاسئلته نهاية)؟ كريستين يساورها الشك.. في الوقت الحالي لايأبه لذلك (الخوف لايتملكه.. انه متأكد من براءته، ما عليه إلا أن يثبت ذلك. وفجأة يتهيأ له وكأن أحداً يتتبع كل ما يقوم به فيشعر بأن الستائر غير مسدلة، والناس في الخارج. هذا ما جرى لسبنسر على وجه التقريب).

بعدهايتضح له كيف ابتدأت الناس بعزله.. مدير المدرسة يرسله الى البيت. أغلب العائلات احتجت خوفاً على أولادها من هذا المدرس المتهم بمثل هذه الجريمة. وبلاشك أصبحت كريستين لاتقاسمه مشاعرها وأفكارها. ويدون في مفكرته: «حتى كريستين؟ هذا يعني أني ربما كنت أنا المذنب فعلاً».

أحدهم قام بطلاء بابه في الليل وكتب عليه «مجرم».. وأثناء القداس يتراءى له وكأن الجميع يتجنبونه: «أليس من الممكن أن يكونوا طيلة هذه السنين، قد تحملوه على مضض؟ انها ليست قريته، وهذه ليست كنيسته!».

ودائماً.. سجن الوحدة هذا الذي يلاحقه باستمرار.. ودائماً هذا الجوع للحب والتفاهم.

ولكنه لايستطيع الخروج من سجن (الأنا) بعد الآن.

وتزداد الفكرة وضوحاً: ليس ثمة امكانية للتفاهم مع البشر. هو ذاته ما عاد قادراً على التفاهم مع الآخرين.

وتبدأ محاربته بشكل مفضوح.. عندما قابله أحد أقارب زوجته في البريد العام وقال له أمام الجميع: «ضع نفسك مكاننا.. لنفرض أن هناك شكاً بنسبة عشرة في المئة بأنك المتهم.. هذا يعني أنك تعطينا إمكانية عشرة في المئة.. لنصافح يد مجرم».

الآن، أخذ يعلم بأن الأمور ستسير بطريقها الأسوأ.. الى أن يجدوا القاتل. والطبيب يؤكد أن المجرم هو قاتل «مزاجي»، وربما يقدم على جريمة مماثلة بعد مرور سنوات.. (خلال خمس أو عشر سنوات.. ستقتل فتاة.. وسط ظروف مطابقة لهذه.. مع الفارق، أنه لن يكون محظوظاً.. فيترك آثاراً معينة.. وبعد إجراء التحقيقات نتأكد من أن هذا المجرم هو قاتل بيللا).

حتى ذلك الحين سيكون (أشبي) هو المتهم من قبل كل العالم.. وسيغدو انطوائي الطبع ويعاني من الوحدة. (وماذا يعني ذلك..؟ لم يكن عدد الضحايا هو المهم. الأمر لايتوقف عند ذلك الحد.. وانما عند الشيء الأساسي!! منذ أسبوع.. اقتنع أهالي القرية أن (سبنسر اشبي) ما عاد واحداً منهم).

كل شيء يبعث على اليأس. ماذا تبقى لأشبي؟ الهروب! الهروب من نفسه. هذا مستحيل.. لايجوز للمرء أن يهرب من ذاته. وماذا تبقى بعد؟ الهروب نحو الجريمة.

ويلتقي أشبي فتاة صغيرة.. يدعوها للشرب في احدى الحانات.. تماماً كما ظن سكان القرية أنَّ ذلك هو ما حصل مع بيللا.. وأثناء عودتهما يوقف السيارة ويحاول تقبيلها.. ويتملكه القرف فجأة فيمسك عنقها ويضغط عليه.. ها هو يقوم بالعمل الذي طالما اتهمه به سكان القرية منذ اسبوع.. لقد قام بخنقها.

وأخذ يشعر بالارتياح.. الآن لايتوجب عليه الهرب والتخوف، والأحلام المزعجة.. إن ما أمامه هو الواقع القاسي.. لقد قام بالجريمة.. سيتهمونه ويحكمون عليه.

سيمنون يكتب من السادسة وحتى التاسعة صباحاً. ولمدة ١١ يوماً. الرواية تتضمن ١١ فصلاً. ورواياته تتضمن عادة من ٢٠٠ الى ٢٢٠ صفحة بالآلة الكاتبة.

لماذا (١١) فصلاً بالتحديد؟ كل يوم ينهي فيه فصلاً وحداً.. وليس أمامه سوى (١١) يوماً فقط.

ولماذا (١١) يوماً؟ قال سيمنون يوماً: «أكتب بعجلة، لأني لاأعرف كيف أكتب ببطء». وذلك كان مزاحاً.. في الحقيقة. «في جميع رواياتي أحاول ابراز الظروف المحيطة بكل شخصية على حدة، لذا علي أن أكون في جلد كل شخصية فيها. بعد خمسة أيام يصبح ذلك غير محتمل، ١١ يوماً هي حدود الانسان الممكنة.. انها عملية مرهقة جسدياً».

زوجته فقط،تعلم ما تعني هذه الساعات الثلاث. سيمنون يحاول بعدها إنعاش نفسه بشتى الوسائل.. لديه عارضة خشبية خاصة ليقوم بالتمارين الرياضية. ثم يقوم بحلاقة ذقنه.. والتنزه بجوار منزله.. (أينما كان هذا المنزل).

وتنتبه زوجته لخطواته الغريبة. وحركاته غير الاعتيادية.. مازال يعيش بأجواء روايته.. ويلعب دور الشخصيات التي كتب عنها قبل قليل أو التي سيكتب بقية حياتها غداً صباحاً.. وهو لايعلم ما ستكون عليه.

كل ذلك لايتحدث عنه، حتى لزوجته التي تقرأ نصوصه كافة. كل شيء مشروع ماعدا التحدث عن الرواية.. حساب الخادمة، الغسالة الجديدة، آخر الفضائح حول فيلم ما، حول الكلب.. وضع الرواية التي مازالت في طور التكوين.

طموحه يتلخص في الكتابة البسيطة.. كما لو كانت الجمل لطفل صغير: «أجرّب أن أكتب النثر الذي يفتقده الأدب، أريد تحسس ماوراء الواقع، لأكتشف البشر..» ماوراء الواقع، هو ما يعطي الواقع أهميةً وقيمةً.

«الرسام الجيد.. (سيزان) مثلاً.. يرسم تفاحة بثلاث ضربات من فرشاته. فنشأت الأهمية والفرادة. وذلك ماأريد اضفاءه على كلماتي. لذلك استخدم دائماً الكلمات المتماسكة الواضحة. وأتجنب التجريدية.. كلمة «الهزيع» على سبيل المثال.. كلمة جميلة، لكنها لاتعبر عن أي شيء».

منذ سنوات عندما كان يؤلف القصص القصيرة.. كان يطلع الكاتبة الشهيرة (كوليت) على كتاباته هذه.. وتعلق كوليت: (انها كتابة حرفية) وبعدها قام بتنقيحها وإعادة كتابتها: (ولكنها مازالت حرفية).

«مازلت حتى الآن أتبع نصيحتها.. فإني أستخرج كلّ ما يتعلق بالفعل والصفة والظرف والمفعول به.. أدوات اللغة التي استخدمها كوسيلة للتأثير.. واحذف كل الجمل التي كنت قد ألفتها من أجل الجمل فقط. عندما يقول أحد: ما أجمل هذه الجملة.. آنذاك يتوجب عليّ حذفها».

سيمنون رقيب حاذق.. أي شيء ليس له ضرورة يقوم بحذفه. (دينيز) ليست زوجته فحسبْ، وإنما حليفته ومرشدته. ولديها ساعات مكتبية موقوتة. تقوم بدور السكرتيرة وتنهي الاتصالات مع دور النشر والراديو ورجال السينما وتوجه جميع المراسلات.

وتقوم (دينيز) باستنساخ كل صفحة ثلاث مرات. واحدة تخبأ في الصندوق الحديدي في البيت خوفاً من ضياع باقي النسخ، الثانية لدار النشر، والثالثة للمترجم الانكليزي.

مترجمو سيمنون مهنتهم شاقة للغاية: اثنتا عشرة رواية تتم ترجمتها سنوياً. وفي السنوات الأخيرة انخفضت الى ست روايات.

زملاء سيمنون هؤلاء لاينتجون بالسرعة المطلوبة ربما لافتقارهم لسعة الخيال.. ربما هم غير نشطين، ربماياًخذون عملهم بتلك الجدية والاهتمام بحيث يصفّون عدداً كبيراً من كتب الأساطير أمامهم ليتمكنوا من تفسير وشرح نتاج سيمنون.

سيمنون ألف ما يقارب الـ (٤٠٠) رواية وعمره تجاوز الآن الستين عاماً. البعض يحتج: (انه ليس بمؤلف بل انه صاحب مصنع، يملك معملاً للتأليف).

وينتظرون اللحظة التي سيستنفد فيها كل الكلمات. في حين أن قراءه آخذون بالازدياد. والنقاد الجادون يؤكدون أن روايات سيمنون في تطور دائم نحو الأجود.

لقد أفلح بطريقة غير قابلة للشرح، أن يضفي هذه الأهمية على شخصياته

وأشيائه. الصدق الذي يروي به، يصبح عنيفاً.. وكلماته كالديناميت.

ويتساءل البعض: «متى سيكتب سيمنون روايته الكبيرة؟».

البعض يشبهه ببلزاك القرن العشرين.

أما سيمنون فيخيب أمله.. لأنه لم يعالج يوماً برواياته الا شخصين أو ثلاثة، كحد أقصى. ويعالج مشاكلهم في غضون أيام معدودة.. بل وأحياناً في ساعات قليلة. وهم لايملكون سوى مكان واحد أو مكانين فقط.

سيمنون يعقب على ذلك قائلاً: «اني لن أكتب رواية كبيرة كروايات (زولا) أو (بلزاك) أو (دوستويفسكي) أو (تولستوي).. أي رواية بثلاث وعشرين شخصية رئيسية على وجه التقريب. ألم يشعر الناس بعد، بأني قد ألفت روايتي الكبيرة؟؟ وأن النتاجات الأخرى ليست سوى مجموعة روايات صغيرة؟».



أجاثا كريستي
مقتل آكرويد

«بعد لوكريسيا بورجيا، ما من امرأة شغلت نفسها بالجرائم مثلها». هذا تعليق أحد النقاد الأمريكيين.. وعلى كل، فهي لا تشبه بورجيا في شيء. انها طويلة وقوية البنية وممتلئة.. هذه الملكة في مملكة الروايات البوليسية والتي نالت شهرتها عام (١٩٢٦) بكتابها «مقتل روجر آكرويد».

لا يزعجها مضي السنين بعجلة.. بالعكس: «ان حظّي لسعيد! انني متزوجة من رجل مهنته تنقيب الآثار.. كلما كبرت، زاد اهتمامه بي». تقول أجاثا بكل هدوء. ولا تبدو كذلك عند افتتاح روايتها في أحد مسارح لندن.. ما من أثر «لحمّى الأضواء» ولكن ما إن تسدل الستارة لآخر مرة وسط هتاف الجمهور، حتى تكون قد اختفت.. انها تخاف الناس. وتخشى الوقوف وسط الأضواء الساطعة، حتى بالنسبة لأولئك الذين يرتبطون بها عملياً.. الناشر الفرنسي الخاص بها كان عليه أن ينتظر مدة خمسة وعشرين عاماً.. حتى استطاع أخيراً رؤيتها. حتى الصحفيون الانكليز الكبار.. لا يتسنى لهم مقابلتها إلا بعد مرور ربع قرن من الزمن.. مع ذلك قيل الكثير عنها.. ابان هذه الفترة. زواجها الثاني كان من الرجل الشهير (ماكس مالوان)، البروفسور في علم الآثار بجامعة لندن. كانت تصحبه لعدة شهور في السنة الى (بلاد ما بين النهرين) على بعد مئات الأميال شمال بغداد، حيث يقوم زوجها بالتنقيب. كانت أحياناً تساعده، تطهو للعاملين معه وسط اعجابهم ببراعتها في الطبخ. وبشغف كانت تقوم بتأليف كتبها داخل الخيمة في وسط الصحرا «هناك حيث لا وجود للتلفونات والمسارح والضيوف غير المنتظرين». عادة تسكن في لندن

في (والينغفورد) بالقرب من «التيمز» وفي بيت قديم آخر بالقرب من (ديتيشام) في منطقة (ديفو نشاير). في احدى الفترات، في الثلاثينيات، كانت تملك ثمانية بيوت.. تكاليف التجديد والتأثيث كانت لا تهمها، لأنهاتتقاضى الكثير.. ربما أكثر من (لوكريسيا بورجيا). فهي لا تعلم بالضبط. ما تعرفه فقط هو أن عليها أن تنتج روايتين في السنة الواحدة. هذا ما كانت تفعله منذ زمن بعيد.

في الحمام تأتيها أفضل الأفكار كما يتهيأ لها. في جميع بيوتها حتى بيتها في لندن كان الحمام الكبير بالبانيو القديم أمراً ضرورياً جداً.. كانت تجلس فيه لساعات طوال: «أحياناً يطول ذلك لثلاثة أسابيع وأحياناً لتسعة شهور، الى أن أجد القصة الملائمة». ذلك لا يعني أنها تجلس لمدة تسعة شهور في البانيو.. أو ثلاثة أسابيع في المطبخ لأنها - وكما تقول - إن الطبخ يثير خيالها.. «لا أستطيع وضع التصاميم الا في الأيام الممطرة.. أما إذا أشرقت الشمس فيكون أحب شيء الى نفسي هو الجلوس في الحديقة. في الأيام العشرة الأخيرة قبل البدء بالكتابة أحتاج لتركيز محكم.. عليّ أن أظل وحدي دون ضيوف ودون تلفون ورسائل.. أستطيع إنهاء القصة خلال ثلاثة شهور». إنها فخورة جداً لقدرتها على الطباعة بثمانية أصابع «كل الهواة عموماً يطبعون بإصبعين». خشيتها من الناس مرتبطة بنقطة مظلمة في ماضيها. النقطة المظلمة الوحيدة التي لم يحل لغزها. حتى اليوم.

عام ١٩٢٦، بعد صدور كتابها (مقتل روجر آكرويد) الذي كان السبب في شهرتها العالمية، والذي يعد من أفضل كتبها، اختفت أجاثا كريستي. فقام الشرطة والمخبرون بالبحث عنها.. الصحف كانت تجري مقابلات مع أشهر مؤلفي الروايات البوليسية مثل (ادغار والاس) و(دوروثي سايرز).. وكانوا ينشرون -مقابل نقود كثيرة طبعاً، وهذا مفهوم -توقعاتهم بشأن مصير أجاثا كريستي. ولقد تم العثور فيما بعد على سيارتها في احدى الضواحي، بعد أن استخدمت الشرطة الطائرات والكلاب و(١٥) ألف متطوع للبحث عنها وسط الغابات. في الليل أيضاً كانوا يجوبون الغابات بمصابيحهم الكبيرة.. واتضح أخيراً، انها كانت تقيم في أحد الفنادق باسم مستعار.. تتمتع براحة كاملة.. وترقص ليلياً.. أحياناً مع أعضاء الفرقة الموسيقية. وصرحت لرجال الشرطة، أنها كانت تعاني من فقدان الذاكرة.. والأطباء الذين قاموا بفحصها.. صدقوها أيضاً.. أما الجمهور فلم يصدقها تماماً.. لقد ادعوا أن هذه الحادثة هي مجرد غطاء دعائي لرواية (روجر آكرويد). وها هي

تواجه أضواء الجماهير التي طالما كانت تخشاها. (روجر آكرويد). كان كتابها السابع. بعض كتبها الأخرى نالت شهرة ولكن ليس بمقدار الأخير.. الذي لم ينج من النقد والمشادات.

لقد احتج (نادي المخبرين) الذي يضم كتّاب الرواية البوليسية: ينبغي أن يعامل القارئ بمسؤولية وعقلانية، فلا يجوز إدخال الممرات السرية والأبواب الخفية في الروايات، كما لا يجوز حشر شخصية ثانوية لا يعرفها القارئ تماماً.. ومن ثم اظهارها في النهاية كشخصية رئيسية. وقد اعتقد النادي أن القراء قد عوملوا بهذه الطريقة في رواية (روجر آكرويد) لأنّ أجاثا تركت كل ما كان بامكانه أن يدل ويشير الى تشخيص المجرم الحقيقي.

ويصيبها هذا الاتهام في الصميم.

سوف لن تكون هذه هي المرة الأخيرة.. في أواسط الخمسينيات عندما عرضت احدى رواياتها «مصيدة الفئران» على المسرح، كان أحد النقاد حانقاً لأنه خُدع حتى اللحظة الأخيرة، وتشخيصه كان يسير في الاتجاه المعاكس، فأضاع المجرم الحقيقي.

آلاف الرسائل تصل الى دار ا لنشر.. الجميع وجدوا أن النقاد هم الذين عاملوا القراء بصورة غير لائقة وليس أجاثا كريستي. وبالرغم من كل ذلك، استمر عرض الرواية ما يقارب الست سنوات.. وقد سجل (روجر آكرويد) رقماً قياسياً في اجتذاب الجمهور.. واعتبرت من أنجح الروايات البوليسية.. وقد قرأت من قبل الملايين.

بمحض المصادفة ابتدأت أجاثا كريستي بتأليف الروايات البوليسية.. انها أصغر بنات الأمريكي (أبفاه ميلر) وزوجته الانكليزية. ولدت عام ١٨٩١ في (توركي) الساحلية في (ديفونشاير). وما لبث أن توفي الوالد، وقامت الوالدة بالاهتمام بهم. ويا له من اهتمام! أجاثا الصغيرة لم تسجل في المدرسة، في هذه الفترة كانت الأم ترى أن الدراسة في البيت هي الأفضل. وأخذت تعطي الدروس بنفسها.. الأخوات الكبيرات كن لا يأبهن بها.. ولم يكن لديها أصدقاء بعمرها.. فانطوت على نفسها لفترة طويلة، تبتكر القصص وتعقد الصداقات مع شخصيات قصصها. كانوا أقرب اليها من الناس الأحياء.

عندما أصابها المرض في احدى المرات، عرضت عليها والدتها: «حاولي أن تكتبي قصة من احدى قصصك». في الحقيقة لم يكن ذلك عرضاً بل أشبه بالأمر.

كتبت أجاثا قصتها.. كانت حزينة للغاية.. جميع شخوصها ماتوا في النهاية.. لم تكن تحلم أن تصبح الكتابة في يوم من الأيام مهنتها. حلمها كان، أن تصبح عازفة بيانو. لكن المدرسين قالوا انها عصبية للغاية ولا تصلح أن تصبح عازفة بيانو. ثم صممت أن تدرس الغناء، فأرسلتها والدتها الى باريس. «صوتها غير مقبول» هذا ما اكتشفوه هناك!

وعادت الى انكلترا ثانية، فنصحتها والدتها أن تجرب الكتابة.. فكانت لها محاولات في تأليف القصص القصيرة.. وأخذت تنشر بعضاً منها. تزوجت بعدها (أرشيبالد كريستي)، الذي ما لبث أن أرسل الى الجبهة في فرنسا أثناء الحرب، فاضطرت أن تذهب معه وتعمل في أحد المستشفيات هناك. ولأول مرة تأتيها فكرة تأليف رواية بوليسية. وإذا أردنا أن نكون أكثر دقة، فان الأم كانت وراءها ثانية. لقد قامت باستفزاز ابنتها: «أراهن على أنك لا تملكين القدرة على تأليف رواية بوليسية؟»

وتبدأ المحاولة. آنذاك كانت رشيقة جداً، أشبه بالرياضيات.. أو راكبات الخيل.. أما أن يتصورها المرء مؤلفة روايات بوليسية.. فهذا محال.. وبما أنها كانت تعمل في أحد المستشفيات، فقد كانت أحداث قصتها تدور في داخل المستشفى. وعندما انتهت من كتابتها أرسلتها الى احدى دور النشر.. ولكنها أعيدت إليها.. وبعثتها الى دار نشر أخرى.. وأعيدت اليها ثانية، وفي المرة الرابعة، لا ترجع النصوص.. فتعتقد بأنها قد فقدت. ولم تعر المسألة أية أهمية إلى أن تلقت رسالة من الدار تعلمها بالموافقة على نشرها.. وبعد الاتفاق، صدرت الرواية وبدأ المجد. (روجر آكرويد) هي قصة الدكتور (شيبارد). «مسز فيرارس توفيت الليلة بين ١٦ و١٧ سبتمبر يوم الخميس.. هناك من اتصل يوم الجمعة الساعة الثامنة صباحاً، لم أستطع عمل أي شيء.. فلقد مر على موتها بضع ساعات».

انهم لا يعرفون عن ماضي السيدة المتوفاة إلا القليل. زوجة رجل غني، أغرق نفسه في العام الماضي بالشراب.. أما أخت الدكتور (شيبارد) (كارولين) فتعتقد أن موته لم يكن طبيعياً.. وأن زوجته قد قامت بوضع السم في طعامه. انه مجرد هراء! هل تملك (كارولين) الأدلة الكافية لشكوكها؟: «بإمكان المرء معرفة كل شيء بمجرد النظر اليها». هذا هو دليل كارولين على اتهام السيدة (فيرارس). (روجر آكرويد) التاجر اللندني الناجح.. أشيع عنه في القرية بأنه كان يرغب بالزواج من السيدة

(فيرارس). لقد كان متزوجاً، لكنه ترمّل وتبنى ابن زوجته (رالف باتون) الذي كان شاباً لا يصلح لشيء، الا لترك الديون وراءه. في البيت كانت تقطن معه أرملة أخيه (سيسيل) الكندية.. كانت لديها ابنة جميلة شقراء الشعر وذات عينين زرقاوين، وعمها كان يرغب في تزويجها لـ(رالف باتون). الدكتور (شيبارد) يتحدث عن الارباك الذي أحدثته وفاة السيدة (فيرارس). الخادمة النشطة التي تعمل عند الدكتور شيبارد (السيدة روسل) تأتي لعيادة الدكتور مدعيةً أن ساقها مكسورة.. بعدها بلحظات تدخل معه في حديث حول المخدرات: «إذا كان المرء مدمناً، أما من علاج لذلك؟»

آكرويد يقوم بدعوة الدكتور شيبارد لتناول طعام العشاء، ولمناقشة الأوضاع كافة. بعد العشاء ينسحبان معاً الى غرفة عمله، تاركاً ضيوفه: ابنة أخيه، سكرتيره (رايموند)، صديقه الميجور الشهير (بلونت)، في غرفة الاستقبال. آكرويد يجعل كل شيء غامضاً. يغلق الأبواب وراءه ويرجو شيبارد أن يتفحص النافذة إذا كانت مغلقة أم لا، كي لا يسمع أحد شيئاً مما سيدور بينهما، لأن: «لا أحد يعرف ما الذي فعلته خلال الـ٢٤ ساعة الأخيرة». آكرويد كان قد قدم قبل ثلاثة شهور عرض زواج للسيدة فيرارس، ورفضها كان مستغرباً بالنسبة له. عمه تصور أنها تتمتع بمزايا غريبة، هذه السيدة التي كان يحبها. لقد تغيرت كثيراً في الأشهر الأخيرة. انهارت واعترفت بأنها قد قتلت زوجها، لأنها كانت تكرهه! كان بالفعل رجلاً بغيضاً.

والسبب الثاني كان حبها لروجر آكرويد. أحدهم قام باكتشاف هذا السر.. وأخذ يبتزها. فكانت تدفع مبالغ طائلة. لكنها لم تكشف يوماً عن اسم الشخص الذي كان يبتزها. بعد ذلك بساعات.. تناولت علبة كاملة من الحبوب المنومة.. الآن أصبح موتها واضحاً.. لقد كان انتحاراً. وعندما وصل الحديث الى هذا الحد، دخل الخادم ليقدم لهما قهوة المساء، ومعها رسالة من السيدة فيرارس. فتحها آكرويد بلهفة.. المتوفاة تطالبه بالانتقام من الرجل الذي حول حياتها الى جحيم.. حتى لو مرغت سمعتها بالوحل. روجر آكرويد يقطع قراءة الرسالة.. ويطلب من الدكتور شيبارد أن ينصرف. انه يود قراءة رسالة السيدة فيرارس التي تحولت الى مجرمة بسببه وحده. على الدكتور أن يذهب. أثناء خروجه، يلتقي الخادم ويخبره أن سيده لا يريد أي ازعاج. ألم يترك الخادم انطباعاً مربكاً؟ هل كان ينصت من وراء الباب؟ في بوابة الحديقة يلتقي الدكتور شيبارد شاباً يستفسر عن حديقة (فيرنلي).. يريه الدكتور

الطريق ويهرول الى بيته على عجل. ربما اضطر الليلة الى الخروج ثانية، فإحدى مريضاته تنتظر مولوداً. ويرن جرس التلفون.. فيرفع السماعة.. ولا يلبث أن ينادي على ممرضته في الحال: «لقد اتصل باركر من (فيرنلي). لقد وجدوا آكرويد قتيلاً». غرفة آكرويد لايزال بابها مغلقاً.. ليس أمامهم إلا خلعها. ويكتشف الدكتور شيبارد أن آكرويد مازال جالساً في كرسيه كما تركه.. مطعوناً بسكين مغروز بين كتفيه.. ويكتشف المخبر (دايفيس) أن الشباك مفتوح، فيؤكد له شيبارد أنه قد أغلقه قبل أن يخرج بناء على رغبة آكرويد.. فلا بد أن القاتل قد تسلل من الشباك وقام بغرس السكين في ظهر آكرويد. ولكن حتى السكرتير يؤكد بأنه أراد اعطاء سيده أوراقاً للكتابة حوالي الساعة التاسعة والنصف.. ولكنه سمع أصواتاً.. فابتعد على الفور.. إذاً، لقد كان آكرويد عند هذا الوقت حياً. نعم، وربما بعدها بربع ساعة أيضاً حيث يحين موعد الخادم باركر بتقديم الويسكي والصودا كالمعتاد، لكنه يلتقي ابنة أخيه (فلورا) فتخبره بأن عمها لايريد أن يزعج. أو لم يعرف الخادم باركر من الدكتور شيبارد بأن سيده لا يود أن يزعجه أحد اطلاقاً؟ لقد نسي. فلورا تدعى من فراشها وهي لا تعرف ما السبب لذلك. وتؤكد أقوال باركر، نعم، لقد ألقت تحيتها على عمها وقابلت باركر وأخبرته بأنه لا يريد أي ازعاج. لكنها عندماتعلم بأن عمها قد قتل وانها آخر من رآه.. يغمى عليها. ورسالة السيدة فيرارس؟ غريب... لقد اختفت.

أين تدور أحداث هذه الرواية؟ وأين ستدور روايات أجاثا كريستي المقبلة؟. في الريف الانكليزي.. في القرية الانكليزية الصغيرة. الرواية البوليسية الانكليزية التقليدية تدور أحداثها غالباً في مدينة لندن الخطرة، لندن الضبابية، هناك حيث تحدث جميع الأشياء غير المعقولة. حيث يختفي الناس وحيث المداخل والمخارج السرية، والمجرمون في سيارات السباق والقوارب البخارية والجوازات المزورة والأسلحة المهربة.

شيء غير معقول أن يكتب (ادغار والاس) احدى رواياته في الريف الانكليزي.. حتى شرلوك هولمز.. كان من سكان المدينة... لندن، ولو أنه كان يقوم بجولات خارجها، على سبيل المثال الى (باسكرفيل).. ومن يقوم بأغلب الأدوار البوليسية؟ المخبرون الجيدون، الذين يعدون امتداداً لشرلوك هولمز، أي، رجال بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى.. يغورون في الحدث بصدق وفي النهاية يوجّهون

ضربتهم الأخيرة الى خصومهم والأشرار ورؤساء العصابات الأقوياء التي تصل صلاتهم الى قلب (سكوتلاند يارد) أحياناً. نعم، انهم أحد عوامل التوتر الحقيقية لدى (ادغار والاس).. رؤساء العصابات.. أما الآخرون (أفراد العصابة) فلا يظهرون إلا بشكل ثانوي).

كم يختلف كل ذلك لدى اجاثا كريستي! في القرية الجميع يعرفون بعضهم.. في القرية لا وجود لأناس يتجولون بين نيويورك وباريس وشنغهاي.. عدم وجودهم ليوم أو يومين سيترك أثره.. في القرية لا يعتدى على أحد وسط الشوارع ولا يختفون بشكل غامض في الضباب، ولا وجود لحانات تجمع مثل هذه النماذج.. ولا وجود للعاهرات..

في (روجر آكرويد) تختار أجاثا كريستي أجواء أقل رومانسية. يشعر المرء انها ترغب في التعقيد.. دكتور شيبارد يقول: (كينغز أبوت) أظنها كبقية القرى.. مدينتنا المقبلة هي (كرانشستر) تبعد تسعة أميال.. فيها محطة، وبريد وحوانيت تحصل فيها على كل ما تبتغيه.. خيرة الرجال تركوا قريتنا من زمن بعيد.. ولذا لدينا الكثير من العوانس والضباط.. ومن ناحية أخرى فان هوايتنا.. اللغو الفارغ. لكن أجاثا كريستي لا تتطرق الى المحيط المرسوم.. انه لمستغرب حقاً لامرأة تعودت السفر، فلا يمر أسبوع إلا وتسافر فيه إلى لندن وباريس وتعمل كل ما يخطر على بالها.. ما الذي يثير اهتمامها ؟ الناس. وكيف تنظر اليهم! وبأية طريقة تصورهم..

انهم لا يفتحون أفواههم إلا نادراً، ويعملون هذا الشيء أو ذاك.. ومع ذلك فبالامكان التعرف عليهم.. كل هؤلاء الناس، سكان القرية الصغيرة، بشر عاديون.. فيهم الصالح والطالح.. يتمتعون بالضعف لدرجة يعتقد المرء بأنه يعرفهم تماماً.. وبالرغم من ذلك فهم يملكون أسرارهم التي يرعونها بعناية فائقة.. لكنها تنكشف ضمن سياق الرواية. انها أسرار يخشون منها على سمعتهم ومهنهم، أسرار أناس يخشون البوح بها لئلا يعرّون أنفسهم.. إذا عرف العالم، بالأحرى القرية، كيف كانوا في فترة من الزمن..

منذ أن وجدت الرواية البوليسية.. خلقت كل هذه المعوقات.. لتكون الستار على المتهمين الأصليين.. الأمريكان والانكليز يتحدثون عن -السمك الأحمر- Read Herring الترجمة الحرفية لا تعطي المعنى المقصود.. Red Herring لا صلة له باللون الأحمر أو السمك.

في الوقت الذي حدثت فيه الجريمة.. وفي المكان ذاته.. ظهرت شخصيات أخرى.. ليس للقيام بالجريمة، ولكن لأسباب لا علاقة لها بالجريمة.. طبعاً مهما كانت الأسباب.. فهم متعلقون بنقطة مظلمة في ماضيهم.. هؤلاء الناس لهم كل الحق بإخفاء الأسباب الحقيقية لظهورهم في المكان والزمان المعينين. ونتيجة لذلك لا يستطيعون الاعتراف.. لأنهم لا يودون اعطاء الأسباب المقنعة لوجودهم هناك.. وبما أنهم لا يعترفون.. فالشكل سيحوم حولهم ويتهمون بالجريمة.. وطبعاً هذا ما سيحدث! ولنر من منهم قد اتهمتهم أجاثا كريستي؟

هناك الخادمة الجميلة، والميجور الشهير بلونت وزوجة أخ القتيل (التي سترث).. هناك ابنتها ورالف باتون -الذي شوهد من قبل أخت الدكتور في الغابة مع احدى الفتيات.. كارولين الفضولية ما استطاعت معرفة هويتها- لكنها سمعته يقول بأنه يمر في فترة عصيبة من حياته، لأنه كما قال يخشى ألاّ يرث أباه. في ذلك الوقت، لم يكن آكرويد يعلم بوجود ابنه (بالتبني) في القرية.. لماذا حاول رالف باتون اخفاء وجوده عن أبيه في (كينغز أبوت)؟ ولا ننسَ الخادم باركر، الذي اتصل بالدكتور هاتفياً ونفى ذلك فيما بعد.. والشاب الغريب الذي -ودونما شك- لاينتمي الى القرية.. قابل الدكتور شيبارد لدى خروجه عند آكرويد، ماذا حل بهذا الشاب وأين هو؟ ومن هو يا ترى؟

والآن يظهر لنا (هيركول بوارو) بلجيكي الأصل لكنه يتقن الانجليزية. كان في السابق رئيس شرطة في (بروكسيل) ويتمتع بشهرة عالمية.

كان ذلك قبل الحرب العالمية الأولى، قبل الاحتلال الالماني لبلجيكا -فيما بعد هرب الى انكلترا.. وعمل مخبراً سرياً في سكوتلانديارد. في قرية «كينغز أبوت» لا يعرف أحد سر الرجل القصير ذي الشاربين الكبيرين الذي ابتاع البيت المجاور للدكتور شيبارد.. وما من عمل يقوم به سوى الاعتناء بحديقته. (كارولين شيبارد) تحاول طبعاً معرفة سره، فتكتشف، أن جارها قد اعتزل مشاريعه كافة. وأي نوع من المشاريع؟ «دراسة الطبيعة البشرية». دكتور شيبارد يظنه حلاقاً قديماً.. والدليل.. شاربه السميك: ثم: «من يعرف، بأسرارالطبيعة البشرية أكثر من الحلاقين». بوارو ليس مخبراً سرياً كشرلوك هولمز أو أتباعه.. بل انه سيد قديم الأفكار.. لا يمكن تصوره يتتبع قضايا الاجرام. انه متصلب ودقيق ولا شيء يغير طباعه. انه يتذمر بمجرد وجود ذرة تراب فوق ياقته أو لصورة معوجة أو لكرسي لم يوضع في مكانه

المعتاد. انه مخبر سري دون جاذبية.. لا يشكو، لا يشرب.. الشوكولاته الساخنة هي ملاذه الوحيد.. مغرور.. ويعتقد أنه أذكى رجل في العالم. (فلورا آكرويد) كانت السبب في حث بوارو على التحري بقضية القتل، لأنها تريد تبرئة ساحة خطيبها رالف باتون، لأنه أثار الشكوك واختفى، وكأنما الأرض ابتلعته. أما الدكتور شيبارد فينصح بوارو بالابتعاد عن هذه القضية.. لأن ذلك لم يكن في صالح رالف باتون. ويهتم بوارو بفحص المكان.. ولم يجد أكثر مما وجده الآخرون. فقط الكرسي في غرفة القتيل قد تغير من مكانه السابق: «ما من أحد يضع الكرسي بهذا المكان لكي يجلس عليه» يؤكد بوارو.. ويتضح أيضاً أن المخابرة التلفونية التي تلقاها الدكتور شيبارد لم يكن مصدرها من (فيرنلي) بل من المحطة.

السكرتير ريموند يذكر أن سيده لم يستقبل أحداً من الغرباء قبل مقتله، لكنه استقبل أحدهم، مندوب الشركة الذي باعه وثيقة وجهاز تسجيل. هذا المندوب كان قصيراً أشقر الشعر.. كلا، ما من شبه بينه وبين الشاب الذي التقاه الدكتور على بوابة الحديقة. بوارو يعيش في ارتباك تام: «شباك مفتوح.. باب موصود.. كرسي تحرك من تلقاء ذاته.. لهذه النقاط الثلاث اسأل لماذا؟ لكني لا أجد جواباً». والمخابرة التلفونية تشغله أكثر مما يدعي.. الشرطة تملك القناعة أن رالف باتون هو الذي قام بقتل زوج أمه.. وساعدت التطورات أن تجعل بوارو يؤمن بأن رالف يملك ثلاثة دوافع لقتل أبيه. ثلاثة دوافع.. «هذا كثير، اني أعتقد أن رالف باتون بريء!». بوارو يكتشف أشياء أخرى. بالقرب من البحيرة يجد خاتماً ذهبياً كتب عليه «من: ر(١٣)» من هو (ر)؟ أيكون رالف متزوجاً من فلورا سراً؟ أم أن روجر آكرويد كان متزوجاً من السيدة فيرارس؟ أم أنه تزوج السيدة روسل؟ أم أن ريموند وفلورا قد تزوجا بالخفاء؟

اكتشاف جديد آخر: يوم الجريمة سحب روجر آكرويد مئة جنيه من البنك. ولم يجدوا سوى (٦٠جنيه) في غرفة نومه. من الذي أخذ الأربعين جنيه؟ الخادمة (أورسولا بورن) توضح أن آكرويد فصلها من عملها لأنها بعثرت بعض أوراقه على المكتب، وهي تنفي ذلك. أورسولا الوحيدة في البيت كله التي لا تستطيع اثبات براءتها، لأنها كما تدعي كانت في غرفة نومها. ويستمر الاستجواب. ها قد أعطتنا أجاثا كريستي ما يقارب خمسة أدلة لآثار المجرم.. أدلة غير واضحة المعالم. انها آثار أولئك الذي تركوها. الأشخاص الذين تواجدوا أثناء ساعات الجريمة، وينكرون

وجودهم. هناك أكثر من أربعة أو خمسة في القضية.. هركول بوارو أذكى من أن يضلل.. أخذ يتحرى ويصنف كل الأشخاص، الذين لا يستطيعون اعطاء الأدلة لتبرئة ساحتهم حسب تسلسل دقيق.. الذين لا يقدرون على فتح أفواههم خوفاً من اكتشاف ما ضيهم. مهنة المخبرين مهنة سحرية بتتابعها التصاعدي. بوارو لا يعتمد على أي عامل مساعد، ولا على قوة جسدية خارقة. سلاحه الوحيد.. دماغه.

دائماً يتحدث عن «الخلايا الرمادية» التي يقوم باستخدامها بطريقة أفضل من غيره. العملية الذهنية، على أي أساس قائمة لديه؟ انه لا يصدق شيئاً دونما أدلة. الشك يعزى الى الأشخاص المختلفين الذين يتحدثون عن أشخاص مختلفين. كل ما اكتشفه لا ينسجم مع بعضه. استنتاجه يقول: لابد انهم يكذبون عليه. انه مؤمن أن الجميع يخفون عنه شيئاً. آكرويد، شيبارد، ريموند، فلورا -الجميع، الجميع. لكنه سيعرف لماذا كان هؤلاء الأشخاص في ساحة الجريمة ولماذا تستروا على ذكر الحقيقة. الشرطة مازالت في بحث مستمر عن رالف باتون، في الفنادق وفي شقته في لندن وعند أصدقائه.. وتستنفر الشرطة في جميع الموانئ. التهم ضد رالف باتون في تراكم دائم.. هناك بصمات على أداة الجريمة ورجال الشرطة يتوقعون أن تكون بصمات رالف.. وبوارو يعتقد أنها تخص القتيل.. لا يوجد أسهل من وضع أصابع القتيل على أداة الجريمة. بوارو محق -كالعادة. انه يقذف أكاذيب المتهمين بوجوههم.. بدرامية متصاعدة.. لكن لا أحد يجيبه.. بل يجيبونه ولكن ليس في الوقت نفسه. انه يؤمن بأن المذنبين سيتخلصون من شعورهم بالذنب عاجلاً أم آجلاً. أولهم كان السيد آكرويد، ثم السيدة العجوز، التي تعترف بأنه كان يدفع لها راتباً شهرياً، لكنه لم يترك لها أية حصة من الارث. وتعترف أيضاً بأن (أورسولا) لم تفتش مكتب السيد آكرويد.. وانما هي. وليس المكتب فقط بل محتواه أيضاً بحثاً عن الوصية. كانت عليها ديون كثيرة.. حتى السكرتير ريموند عليه ديون كثيرة.. وبما أنه ورث بعض المال.. فهو يعد في قائمة المتهمين، بالرغم من امتلاكه لأدلة البراءة. التالي، الذي يعترف هو الخادم باركر.. في السابق كان متورطاً بقضية ابتزاز.. فسيده القديم الميجور (إليربي) المدمن على المخدرات، كانت له صلة بجريمة قتل.. باركر كان يعلم بكل ذلك.. وكان بالامكان الوشاية به.. لكن سيده بقي يدفع له حتى يوم مماته. واعترف أيضاً بأنه أنصت من وراء الباب لحديث آكرويد والدكتور شيبارد.. وتناهت لسمعه كلمة «ابتزاز».. وإذا كان يبتز، فلماذا لا يأخذ دوراً في

هذه اللعبة؟ الشخصية التالية التي اعترفت بأسرارها كانت (فلورا آكرويد) لم تكن كما اعتقد بوارو، عند الساعة العاشرة الا ربعاً عند عمها كما ذكرت. بل قامت بتمثيل هذا الدور عند رؤيتها للخادم باركر.. في الحقيقة كانت في غرفة عمها في الطابق العلوي.. وسرقت الأربعين جنيهاً. حتى هي كانت غارقة في الديون، ومن خلال حديثها كانت الشرطة -وليس بوارو- تعتقد بأن آكرويد كان لا يزال على قيد الحياة عند الساعة العاشرة إلا ربعاً.

ربما كان آكرويد في هذا الوقت ميتاً؟ ولكن السكرتير يؤكد بأنه قد سمعه يتحدث واعتقد أن الحديث كان يدور مع الدكتور شيبارد. كلا، هذا ليس صحيحاً.. يثبت بوارو.. والتفسير لذلك أن الجهاز الذي ابتاعه آكرويد كان مخصصاً لمفاجأة سكرتيره.. القاتل قام بتشغيله لخداع الآخرين بأن آكرويد يدير حديثاً مع أشخاص، وموقعه كان أمام آكرويد على المنضدة.. والكرسي الذي أثار بوارو منذ البداية كان بعيداً عن الحائط. كل ذلك سيحكيه بوارو في النهاية.

وأخيراً تعترف مدبرة المنزل الجميلة والانطوائية.. وتسرد كل أسرار حياتها عندما يفاجئها بوارو قائلاً إن هناك شخصاً يدعى (تشارلز كنت) قد اعتقل في (ليفربول). هذا الشاب هو الذي كان قد التقى الدكتور عند بوابة الحديقة وكان مدمناً على الكوكايين.. وما دام لا يعرف بعد وقت حدوث الجريمة بالضبط، فيعد هو أيضاً من المتهمين.. منذ البداية لم يفته الشبه الكبير بين مدبرة المنزل وهذا الشاب.. فتقسم له بأنه تؤمن ببراءته.. انه ابنها.. ابن غير شرعي.. تركت مسؤولية تربيته لغيرها. في ليلة الجريمة التقته في الحديقة. طالبها ببعض النقود لأنه كان ينوي السفر. أما (أورسولابورن) فتنهار عند وصول خبر اعتقال رالف باتون في ليفربول، فتعترف بأنها رأته ليلة الجريمة.. في الحديقة، وانه زوجها، والخاتم الذي وجده بوارو قرب البحيرة هو خاتمها. وأخذت تسأل بيأس كالآخرين: «أين رالف؟ ولماذا يخفي نفسه؟».

والآن، سيقوم بوارو بما تسمح أجاثا كريستي القيام به دائماً.. عندما يحين حل أية قضية.. انه يدعو كل الذين تواجدوا أثناء حدوث الجريمة.. ويقول لهم.. من الممكن أن يكون القاتل واحداً منكم.. لأن وقت حدوث الجريمة ليس معروفاً على وجه اليقين. ويدع الآخرين يحكون بالضبط.. ما قاموا به في تلك الليلة.. وأين وفي أية دقيقة. يعرِّف بوارو القاتل: «لنأخذ انساناً اعتيادياً.. لا يملك أدنى تصور للقتل

لكنه ضعيف.. يملك ضعفاً في داخله لم يبرز حتى الآن.. ربما لا ينعكس هذا الضعف على شخصيته.. ولكن لنفرض أنه يتوصل الى سر يتعلق بحياة أو موت الآخرين. ردود فعله ستكون أن يفضح هذا السر ويقوم بواجبه كمواطن.. ولكنه يصبح ضعيفاً.. فربما استطاع أن يوفر بعض النقود.. وربما بكميات كبيرة جداً.. ولا يطلب منه مقابل ذلك شيئاً سوى أن يغلق فمه.. هكذا تبدأ المسألة.

لكن طموحه لكسب المال ينمو.. انه بحاجة للنقود، وسيحتاجها دائماً أكثر فأكثر.. فيغدو طماعاً.. ولكن عند المرأة يختلف الأمر. كثير من النساء عندما يخن أزواجهن يحطمن حياتهم بالاعتراف. وكما اعتقد هكذا كان الحادث تماماً. الضيق الذي كانت تعانيه المرأة كان كبيراً ولكنه لا يشكل النهاية. الرجل الذي نتحدث عنه وجد نفسه أمام خطر الفضيحة وجهاً لوجه، انه لم يعد الانسان ذاته، بل أصبح انساناً يائساً يحارب وظهره الى الحائط وكل وسيلة لا تناسبه.. لأنه إذا افتضح أمره.. سيتحطم ولذلك.. يقوم بالجريمة».

ويظهر رالف باتون فجأة في بيت بوارو، حيث كان جميع المشتبه فيهم مجتمعين.. لماذا هرب؟ وأين كان متخفياً؟ ولماذا؟

بوارو يعرف هذا أيضاً. إذا لم يعترف المجرم الآن.. سنضطر الى سجن انسان بريء.. ألا وهو رالف باتون.

أيقدم المجرم نفسه؟ أم ينتظر بوارو أن يعطي اسمه للشرطة غداً؟ بوارو قام بتشريح كل «الأسماك الحمراء»، ولم يعد بامكان المجرم الحقيقي الاختباء وراء المشتبه فيهم. انه مفضوح.. المتهم انسان لا يخطر ببالنا.. والآن سنسأل أنفسنا كما الشرطة والآخرين في رواية أجاثا كريستي.

لماذا لم نفكر بهذا الشخص من قبل.. على أنه هوالمجرم؟ انه لا شك بسبب «الأسماك الحمراء» والآثار العديدة والأدلة التي لا يمكن التشكيك بها.. وأخيراً يقع كل شيء في مكانه المناسب والنهائي.. الدافع يقفز أمام الأعين. والتهيئة للجريمة تقع بكل تفاصيلها أمام أعيننا.. مَنْ هو المتهم؟ انه.. الدكتور شيبارد، الذي سرد القصة كلها، والوحيد الذي رأى آكرويد لآخر مرة، وقتله ليأخذ رسالة السيدة فيرارس منه.. لأنها الدليل الوحيد على جريمته.. لأنه هو الذي كان يعرف بأن السيدة فيرارس قد قتلت زوجها.. ولذا قام بابتزازها.

الطبيب البسيط، الذي أراد منه بوارو أن يساعده على قواه الضعيفة.. هو المجرم؟

لا أحد بين آلاف القراء استطاع الوصول لذلك.. والشيء ذاته ينطبق على بقية رواياتها. كل رواياتها.. لاأحد يستطيع التوصل الى المجرم أو المتهم. وتعد كتبها من المختارات الجيدة في انكلترا وفرنسا وايطاليا وألمانيا (على الأقل الى وقت وصول هتلر للحكم) ثم منعت بعدها. لماذا، حتى بوارو الذي يكتشف كل شيء.. لا يستطيع اكتشاف ذلك. بعد رواية (روجر آكرويد) يقول لها الناشر الانجليزي: كتبك في رواج دائم.. وبامكانك كتابة ما يحلو لك.. ان اسم اجاثا كريستي بحد ذاته يعد نجاحاً تجارياً.. هذا الكلام أثار الحزن والفرح لديها في الوقت نفسه. كيف؟ نجاحها كان مرتبطاً باسمها وليس بقدرتها.. فقامت بتأليف رواية غرامية رومانتيكية للغاية.. تحت الاسم المستعار (ماري وستماكوت). وصدر الكتاب ونال نجاحاً ساحقاً.. ومنذ ذلك الحين أخذت تكتب لمدة ثلاث سنوات روايات حب ساخنة تحت الاسم ذاته. لقد قرئت هذه الروايات ومازالت تقرأ.. وكان بالامكان ألاّ يشعر أحد بأن أجاثا كريستي وماري وستماكوت هما شخص واحد.. لولا المصادفة البليدة التي أظهرتها لضوء النهار، مصادفة لا تشبه مصادفات رواياتها البوليسية. الحياة أقل اتقاناً من الروايات البوليسية الجيدة. المسألة لها وجه آخر -ألم تحكِ أجاثا كريستي حول المرأة ذات «الخلايا الرمادية» التي تعمل بشكل رائع.. وتضلِّل الكثير من قرائها.. كما يحلو لها أن يكون المرء دائماً ذكياً.. يصبح ذلك أحياناً شيئاً مملاً ومنغصاً.. انها تريد أيضاً أن تكون أحياناً رومانتيكية.. كالنساء الأخريات... على الأقل مرة واحدة كل ثلاث سنوات.

ادغار والاس
الخائن



ادغار والاس عاد لتوه من أمريكا، محملاً بعقود ممتازة. (شيكاغو ديلي نيوز) عرضت عليه تأليف عدة روايات بوليسية.. للطبعة الأولى من كل رواية في أمريكا سيدفع له خمسة آلاف دولار - بقية حقوق الطبع تعود لادغار والاس - انه مبلغ محترم! وذلك يتم طبعاً عند تسليم الرواية في موعدها المحدد. انهم لاينتظرون بعد الموعد يوماً واحداً ولاحتى ساعة. والاس ليس من الرجال الذين يحبون العمل.. هناك ما هو أهم من ذلك: سباق الخيل! الذي يشكل متعته الوحيدة. أو الرهان الذي غالباً ما يخسر نقوده فيه.. ويسلبه متعته. في البداية كانت خسائره نسبية. مع مرور الزمن أخذ الرهان يبتلع كميات كبيرة من النقود. هذه ليست سوى البداية، لابد سيأتي يوم ويستعيد فيه كل خسائره. أو ليس هو الاختصاصي في هذا الميدان؟ أو لم يُغطِّ منذ سنوات عديدة في أكبر الصحف اللندنية.. أخبار سباق الخيل، فكيف له أن يقع في الخطأ؟.

السكرتير روبرت كورتيس يؤكد بخيبة.. أن الرواية التي من المفروض تسليمها الى (شيكاغو ديلي نيوز) والتي ستحتوي على ما لايقل عن مئة ألف كلمة.. يجب تسليمها خلال اسبوعين.. وبالرغم من ذلك، فإن إدغار لم يقرر حتى الأن البدء بها.. وتمر بضعة أيام أخرى يقضيها في ميدان السباق.. ولم يتبق أمامه سوى أسبوع. وخمسة أيام فقط. لكتابة روايته.. ويرن التلفون. انه رئيس مكتب (شيكاغو ديلي نيوز) في لندن، يسأل عما حل بالرواية.. كورتيس يتلعثم مراراً:

- «خلال خمسة أيام وتكون أمامك»

- «وكيف هي؟»

-«انها مشوقة للغاية!»

- «جريمة؟»

- «بالطبع جريمة. ويالها من جريمة»

-«ومانوع الجريمة هذه؟» كورتيس يسعل بحدة.

- «سيد - كورتيس، هالو، أمازلت على الخط؟ قل لي بصراحة. ادغار والاس لم يبدأ حتى الآن بالرواية.. أليس كذلك؟.. يا لك من كذاب!»

- «نعم، السيد والاس لم يبدأ بها بعد»

- «وسوف لن يبدأ بها اليوم! كيف يتصور ذلك؟ الاثنين القادم علينا أن نبدأ بالطبع».

- «سأتحدث مع السيد والاس!»

- «لافائدة من ذلك.. انتظر! فلدي فكرة، اذهب لسيدك وأخبره بأنك لاتعتقد بأنه سينجز روايته.. وتراهنه على عشرين دولاراً»

- «بامكاني أن أخسر العشرين دولاراً.. فأنت تعرف السيد والاس أيضاً.. سيعمل كل شيء من أجل كسب الرهان.. وسيكتب الرواية خلال ثلاثة أيام».

- «لذلك عليك أن تراهنه، ونحن سندفع لك».

وها هو والاس يجلس وراء طاولة عمله. انه يريد أن يبدأ بروايته.. انه يدخن.. انه يشرب الشاي.. ولكن لاشيء يخطر بباله. لاشيء على الاطلاق. يداعب ذهنه.. انه يملك فكرة غيرواضحة.. ويعرف كيف تنتهي فقط. البداية تعتبر من أصعب الأمور لديه. الصفحات العشر الأولى.. هنا تكمن العقدة! فاذا وجد البداية.. فستسير الرواية من تلقاء نفسها. في الغرفة المجاورة يجلس كورتيس.. يدخن ويشرب الشاي.. وهو مقتنع بأن الألف دولار ستذهب سدى.. وفي هذا الوقت بالذات.. حيث لديهم حسابات كثيرة للدفع. في الليل عندما غادر كورتيس البيت كان والاس لايزال جالساً وأمامه الأوراق بيضاء.. فارغة. والاس مازال يدخن.. والاس مازل يشرب الشاي!

في صباح اليوم التالي عندما يعود كورتيس ليسأل سيده بلهفة مملوءة بالأمل: «أما ممن جديد؟».. «شيء جديد للغاية! علينا أن نسلم يوم السبت مئة ألف كلمة!» وكومة الأوراق على طاولته مازالت بيضاء.. فارغة. والاس غير مرتاح البال..

فاليوم يريد الذهاب الى سباق الخيل: «مازلنا نملك أربعة أيام أمامنا» في المساء أصبحت ثلاثة أيام ونصف. ويبدأ والاس في الليل بالفصل الأول، بعنوان «الخائن». الساعة كانت تشير الى الخامسة صباحاً.. عندما أنهى كتابةالفصل الأول. وقام ليأخذ حماماً.. ثم بدأ العمل. جلس أمام آلة التسجيل.. ودونما انقطاع اخذ يتحدث.. الكلمات تخرج من فمه واحدة تلو الأخرى.. وخالية من التعبير تماماً. فإذاً السارق (لاري جرايم) الذي قام بسرقة المجوهرات الثمينة. كان بامكانه أن يبيعها لأحد معارفه.. لكن الأخير دفع مبلغاً ضئيلاً.. لاري يأمل بنتيجة أفضل. لكن رجال الشرطة يلقون القبض عليه. المفتش الغامض بعض الشيء (بارابال) من سكوتلانديارد يعلمه بأنه وقع ضحية وشاية أحد المقربين اليه.

وبهدوء يفتح الباب.. وبهدوء أيضاً يدخل الخادم ويضع فنجان الشاي. والاس يشرب كل نصف ساعة فنجاناً من الشاي.. ويجب أن يكون جديداً وطازجاً.. انه يحتسي في اليوم أربعين فنجاناً.. ويدخن يومياً ما يقارب المئة سيجارة. واضعاً سجائره في مشرب طويل جداً.. حتى يتجنب دخول الدخان في عينيه. انه يتحدث أمام آلة التسجيل.. وتمر ساعة وهو لايزال يتحدث،وهو في ملابس النوم، ومجسداً بذلك الهدوء بعينه. عندما يراه المرء في حالته هذه يعتقد بأنه يملك وقت العالم بأسره.. وهو في الواقع لايملك منه شيئاً.

وتظهر شخصيات جديدة. الشابة الجميلة (بيريل ستيدمان) خطيبة (فرانك سوتون). أناقته تفوق العادة.. ويدير شركة للتصدير والاستيراد في لندن. سوتون كان يقوم بإعطاء الفرص للمجرمين والمنحرفين. (ليسلي).. نزيل السجون.. كان يسبب مشاكل كثيرة لأبيها فريدمان. ولكن، هل سيحصل ليسلي على هذه الفرصة؟ شيء غير أكيد أبداً.

(لاري جرايم) أنهى مدة سجنه.. وخرج يبحث عن الرجل الذي وشي به..يظن بأنه يعرفه! فيقوم بانتظاره أمام شركة سوتون للتصدير والاستيراد. هناك من يراقبه.. من وراء النافذة.. إنه ليسلي! جرايم يوجد بعد ذلك مقتولاً بعدة طلقات في صدره.

انعدم الآن الاحساس بالزمن بالنسبة لوالاس.. انه لايعرف النهار من الليل.. الستائر مسدلة والأضواء الكهربائية مولعة. والاس لايرى ولايسمع ما يدور حوله.. حتى لو قامت ثورة.. أو وقع زلزال. سوف لن يدون شيئاً من هذا! بين فترة وأخرى

تفتح (فيوليت) زوجته الباب.. والاس لايلتفت وراءه.. انه مسترسل في حديثه. كم من الروايات يا ترى ألفها بهذا الشكل؟ الكثير. في العام الماضي كتب ما يقارب المئة رواية.. قبل أسابيع أراد تذكر عناوينها ووضع قائمة بذلك.. لكنه تراجع.. لأن عددها كبير جداً.لم يكن من المقرر أن يصبح كاتباً، هوابن احدى الممثلات الصغيرات التي كانت تجوب مع فرقتهاكل الأمكنة.. وأودعت ابنها في أحد الملاجئ فتبناه سمّاك فقير يبيع السمك في لندن.. وكان على إدغار الصغير أن يصبح سماكاً بدوره، وقبلها كان يعمل في احدى المطابع.. ويوزع الجرائد اليومية! ومن ثم عمل في أحد مصانع الأحذية!

ثم أصبح جندياً.. وأرسل الى جنوب افريقيا، حيث كانت الحرب الأهلية قد نشبت وقتذاك. وبما أن ادغار يتحلى بحماسة سادسة.. تطورت لتستوعب الأمور كافةً الجديدة التي كانت تحيط به.. فأخذ يكتب المقالات ويبعثها للجرائد، ويحصل على النقود. نقود كثيرة بالنسبة له آنذاك، وقائد الكتيبة وجد في ذلك عملاً يسيء الى الجيش. ولكنه عُين بعد ذلك كمراسل حربي لرويتر ونالت مقالاته استحساناً كثيراً.. وبعد ذلك أصبح مراسلاً لجريدة (ديلي ميل).

وانتهى به المطاف الى تأليف الروايات البوليسية، التي كانت توفر له نقوداً كثيرة.

والاس يتحدث أمام آلة التسجيل. والخادم يجلب له كل نصف ساعة فنجان الشاي.. أحياناً مع سندويش.. أو قطع اللحم مع البيض.. لكنه لايمس الطعام اطلاقاً.. والاس يدخن ويشرب الشاي ويسجل. عندما ينتهي شريط التسجيل يقوم الخادم بابداله بواحد جديد.. الهواء في الغرفة بات ثقيلاً.. من دخان السجائر.. والاس لم يحلق ذقنه منذ يومين.. وشعره منكوش.. وعيناه ملتهبتان.. ولم يستحم منذ يوم الثلاثاء.. لأنه جالس وراء طاولته.. ويسجل! وجهه.. عديم التعبير.. وصوته عديم النبرات.. كما لو كان جالساً في زنزانته ويلصق الأكياس منذ سنين طويلة وصوته ميت تماماً.

تظهر شخصيات جديدة. (تيلمان) الذي يعمل في شركة سوتون ويثير الشبهات بتصرفاته.. الظاهر أنه لايهتم بعمله ولايقوم بعمل حقيقي.. بل يتجسس على الآخرين فقط! وهناك أيضاً الصحفي اللامع في أكبر الصحف اللندنية.. والذي يحمل هذا الاسم الجميل (جوشوا هاراس)، الذي يبدي اهتماماً بالكابتن ليسلي..

لكنه لايستطيع أن يحصل على معلومات وافية عنه.. المفتش بارابال كان هناك من يلاحقه ولكنه يتخلص منه في اللحظة المناسبة.. وبعدها يكاد أن يصاب بالتسمم أثناء أكله قطعة من الحلوى.. لكنه (كاد) أن يسمم. (هيلر) الذي تحوم الظنون على أنه الشخص الخائن، (يكاد) يقبض عليه رجال الشرطة.. ولكنهم أيضاً، (كادوا يلقون القبض عليه، لأنه استطاع الفرار بسيارته التي وجدت فيما بعد محطمة تماماً.. وتثبت الشرطة بأنه لابد أنه قد أصيب بجروح ما، في هذه الحادثة. ويا لها من مصادفة.. في اليوم التالي يظهر الكابتن ليسلي ويده ملفوفة بالضمادات، فادعى بأنه قد جرح نفسه أثناء الحلاقة. إذاً كان ذلك أمراً غير مشكوك فيه.. اثناء حديثه.. ينتبه ادغار والاس... بأنه يكتب دائماً الرواية ذاتها. تحدث جريمة.. وجرائم صغيرة أخرى.. والقارئ لايعرف من يقوم بهذه وتلك. كما أنه لايعير أية أهمية لدوافع الجريمة.. أو فيماإذا كان الحدث يملك جزءاً من الواقعية بداخله.. أو حتى في قالبه الخارجي. انه يهتم بإشغال ذهن القارئ أطول مدة ممكنة. ليس القارئ فحسب، وإنما أبطال روايته أيضاً. عندما كتب روايته الأولى (المحققون الثلاثة) وأصدرها على نفقته، أعلن عن تقديم جوائز مالية لمن يستطيع حل لغز (المحققون الثلاثة). كان يعتقد بأن لا أحد يستطيع حلها ولكن عندماوصلته الحلول الصحيحة اضطر الى دفع النقود.. وسط ثورة من الغضب. غضب، لأنه ما استطاع خداع جميع القراء.

وغالباً ما كان يسأل زوجته فيوليت وسكرتيره كورتيس بعدما ينتهي من كتابة خمسين صفحة فقط: «هل تعلمان من القاتل؟» وعندما يجيبان بالنفي.. يفرك يديه فرحاً. وعندما يعرفان الجواب، يقوم بقذف كل شيء.. ويفكر بابتكار شيء جديد.. على الأقل «مجرم» جديد.

كل ذلك لاعلاقة له بالتأليف.. انها مجرد تمارين رياضية. قصة «الخائن» تأخذ مجراها. كابتن ليسلي.. المشبوه أيضاً.. يقسم أمام بيريل بأنها لن تتزوج فرانك سوتون.. لأنه يحبها.. مع أن رجلاً يحمل ماضياً أسود لايحق له أن يعرض نفسه للزواج من بيريل.. ويسمع أبوها (فريد مان) كل شيء.. فيعجل بأمر زواج ابنته من سوتون،لكي تتخلص من ليسلي نهائياً. ويحدد موعد الزواج.. ويعلن فرانك سوتون عن رغبته بقضاء شهر العسل في سكوتلاندا.. لكننا نكتشف.. بأنه قد حجز كابينة في احدى السفن المسافرة الى كندا. الغموض يتراكم. الصحفي هاراس لايكف عن مطاردة شخصيات الرواية. وجميعهم يتصرفون أمامه تصرفاً غريباً ومزدوجاً. ليسلي

يكتشف أن سوتو يعمل ليلاً مع سكرتيرته الخاصة (ميلي) في مكتبه.

ويتم القبض على ليسلي.. بعدما وجدوا في خزانته المجوهرات الثمينة، التي كانت قد سرقت قبل أيام. بالنسبة لبيريل أصبح كل شيء مفهوماً: ليسلي هو الخائن!

بجانب غرفة والاس يجلس كورتيس ويطبع. انه لم يذهب منذ أيام الى بيته.. ولم ينم بما فيه الكفاية.. يجلس غير حليق الذقن.. ويطبع ويطبع ويطبع.. بثلاث نسخ كما هو وارد في العقد. عليه أن يكون يقظاً.. أحياناً يغير والاس الأسماء.. فاسم (جون) مثلاً يصبح في الفقرات التالية (جورج) ومنّ ثم (ديك) والخ.. وعندما يملي على سكرتيرته يهاجمه النسيان ويضيف شخصية.. كانت قد قتلت في الفصل الأول. لذا، فعلى كورتيس أن يظل على حذر دائماً.

انه يطبع بسرعة فائقة.. ثلاثة الاف كلمة في الساعة.. دقات الآلة الرتيبة.. تسبب النعاس لكورتيس وتطبق جفنيه.. ووسط الكلمات يغفو لبضع دقائق.. فيأتيه الخادم بالطعام.. ويوقظه بخفة.. فيقفز مذعوراً..

ويفرك عينيه لمدة دقيقة.. الى أن يعرف كيف يكمل. وهذه ليست المرة الأولى، التي يوضع فيها وسط هذه العجلة. سرعة ادغار والاس أصبحت معروفة ويضرب بها المثل في لندن.. وهكذا تكونت هذه النكتة التي تبدأ برنين التلفون: «أود محادثة السيد ادغار والاس» «آسف، غير ممكن.. ادغار والاس ابتدأ لتوّه بتأليف رواية» «لايهم، سأنتظر على الخط.. حتى ينتهي منها». انتشرت هذه النكتة في كل أرجاء اوروبا وأميركا وافريقيا واستراليا.. في كل مكان يقرأ فيه لادغار والاس. أيجب عليه حقاً أن يكتب بهذه السرعة؟ نعم بالتأكيد. فهناك العقود ذات الأربعة أو الخمسة آلاف جنيه.. التي يقذف بها والاس في ميادين سباق الخيل. وهناك بيته الثمين في بورتلاند بلايس.. في الصيف تقضي العائلة وقتها في (بورنس إند) جنوب لندن.. فيه تقام الحفلات أيضاً وأيام العطل الأسبوعية.. والاس يملك الكثير من الخدم.. ثلاثة سائقين لسياراته الثلاث.. وهو يدفع لهم مبالغ لابأس بها.. عامة، فإن والاس سخي للغاية.. زوجته فيوليت يغمرها بالملابس والمجوهرات والفراء.. وإذا سافر الى سويسرا لممارسة رياضته الشتوية.. يدعو نصف دزينة من الأصدقاء.

النتيجة: هو الذي يحصل على الملايين لايملك حتى ألف جنيه في البنك وعليه

ديون متراكمة.. ولايعرف أحياناً كيف سيعيش في الأسبوع المقبل. وإذا مرض؟ كلا، فهذا شيء غير مسموح به.. فلابد من الاستمرار.

زواج بيريل وفرانك يتم بينما ليسلي محتجز في السجن.. فرانك ينشغل بإيجاد بديل لليسلي.. قبل أن يسافر لقضاء شهرْ العسل. في هذه الأثناء تظهر السكرتيرة (ميلي) في بيت الزوجين.. بعدها تكتشف قضية سفرهما الى كندا. ويعتريها الغضب..

كذلك الآخرون عندما يعلمون بأن الصحفي هاراس قد أخرج ليسلي من السجن بكفالة. الخائن.. وربما المجرم أصبح الآن طليقاً.

كلام والاس في التسجيل غير واضح.. كورتيس لايفكر باستخدام سكرتيرة.. لأنه سيتردد في تصحيح الأخطاء. فيرجو فيوليت أن تعمل معه.. وتساعده في الطباعة.

والآن.. أخذا يعملان كمهووسين، لايسمع المرء إلا دقات الآلة الرتيبة. ومن يجرؤ أن يتحدث؟ يوم الجمعة يرتاح قليلاً. لقد نسي ذلك... ولايعرف كيف يرتاح، دون عمل. يقوم بنزهات، يقرأ كتاباً جيداً، يشارك في مناقشة ذات أهمية.. كل هذه القضايا ما عادت توفر له الفرح.. انه مغرم بعمله ومغرم بسرعته التي يبسطها أمامه.. متمنياً مضاعفتها وتصاعدها.

يوم السبت.. الساعة الثامنة صباحاً يكمل والاس شريط التسجيل. وبعد ما تأخذه الخادمة، يبقى جالساً كما لو كان مخدراً. جلوسه بات لا معنى له.. هكذا، دون أن يتحدث. لقد انتهت الرواية. كان باستطاعته أن يظل لساعات بل لأيام على هذه الحالة. ولكن، المئة ألف كلمة قد سجلت.

ولايجوز للرواية أن تصبح أطول من ذلك، وأية رواية يا ترى؟ يحاول الآن استعادة ما كتبه في الأيام القليلة الماضية. انه لايذكر منها سوى بعض المقاطع، وبعض الأسماء. لكنه لايستطيع ربط احداثها.. كيف كان ذلك؟ آه.. نعم نادي النمور، حتى بيريل أرادت الذهاب اليه.. أمام النادي وقفت مجموعة من الناس.. (ميلي) تولول بشكل هستيري.. سوتون قتل! والكابتن ليسلي هو القاتل. بيريل سمعت بذلك.. وللمرة الثانية كيف حصل كل ذلك؟.. (ميلي) ذهبت الى النادي. سوتون كان مصمماً على تخديرها بشكل مؤقت، لكنه لم يفلح. باب الغرفة التي كان ينتظر فيها فتح بهدوء.. وبرزت منه فوهة مسدس.. ودويّ الطلق الناري.. سوتون

هوى على الأرض. بيريل تعود بحزنها الى البيت. ولكن فريدمان الذي لم يبق شعرة واحدة على رأس ليسلي.. يقسم لها بأن ليسلي لم يكن القاتل.. وانما هو! هو وليس غيره كان الرجل الغريب الذي أراد النوم في النادي. لقد اكتشف مؤخراً.. بأن سوتون انسان ساقط.. ولم يكن يريد أن تصبح ابنته ضحية له. نعم.. سوتون كان منحطاً. و«الخائن».. أيضاً.

لم يكن كذلك فحسب، ولكنه لايزال، لأنه لم يمت، وطلقات فريدمان لم تصبه.. فليسلي حرك يديه في اللحظة المناسبة. أما وقوعه فكان من جراء تناوله للمخدر بمحض المصادفة.. عندما يفيق سيقتادونه الى السجن مباشرة. وماذا عن الآخرين؟ تيلمان.. الغامض.. كان صحفياً.. أبعده هاراس بضربة منه. وكيف هي حياة ليسلي السابقة؟ هاراس يملك الجواب. حياة ليسلي.. كان لها ما يسندها.

والاس يقف.. انه يترنح لأن ساقيه تؤلمانه.. جسده كله يؤلمه من شدة التعب والارهاق. في الجانب الاخر مازالت آلة الطباعة تدق برتابة، فيذهب ليرى النصوص.. أما وجوده فيهمل تماماً.. انه يقف في الطريق.. يجب تنظيم الأوراق وفصلها عن بعضها وثقبها وإدخالها في الأضابير.. السائق يقوم بهذه المهمة، وعلى وجهه امارات التعاسة.

ساعي البريد لايفتح له أحد.. البقالون ينصرفون والعلب في أيديهم، الحارس يثيره الفضول.. وتراوده فكرة الاتصال بالنجدة. والاس مازال يملي عليهم. في الواقع، يشعر والاس بمثل هذه اللحظات بالسعادة. لقد نسي بأنه يكتب من أجل المال.. انه متعلق الآن بعمله، وتسجيله، وسرعته الاجرامية، انه يحتاج كل ذلك كما يحتاج الكسيح الى عصاه، أو كما يحتاج مدمن المخدرات الى حقنة السم. إذا سلب عمله منه، فستفقد أيامه تلك السرعة المخدرة.. وربما يتهاوى بعضه فوق بعض.

الخادمة تقوم بنقل الأشرطة من غرفة فيوليت وكورتيس الى غرفة والاس بصورة آلية. السائق يحصل على الأوراق المطبوعة، ينظمها ويثقبها ويضعها في الأضابير. وإذا أراد كل من كورتيس وفيوليت أن يأكلا شيئاً، يهجم الخدم والسائقون والطباخون على الغرفة ويقومون بتنظيف الآلة الطابعة.

الكاتب ليسلي يظهر في بيت فريدمان. وينتابه السخط عندما تخبره بيريل بانها قد تزوجت. ويقسم أيضاً.. بأنه سيقتل فرانك سوتون بسبب سوء التفاهم الذي بينهما. ويكتشف كل شيء - ومن كان يعتقد ذلك؟ - ميلي زوجة لسوتون. لقد

كان متزوجاً قبلها أيضاً، باختصار كان انساناً مراوغاً وغشاشاً، وقد أثارت سفرته الى كندا.. مع بيريل غيظ ميلي.. وبجهد يحاول تهدئتها. ويطلب منها أن تلتقيه في نادي النمور ليتحدثا بالأمر. وتهرع شخصيات الرواية الى هذا النادي.. الذي لم يُذكر عنه شيء من قبل. الصحفي هاراس يلتقي رئيسه الذي فصله، لأنه احتفظ بكل الشكوك التي توصل اليها. سوتون يذهب الى هناك بعد أن يدس في جيبه كمية من السم، ليخدر سكرتيرته وزوجته تخديراً مؤقتاً. في احدى غرف النادي تظهر شخصية غريبة.. لانعرفها.. انه شخص يبحث عن مكان ينام فيه.. لأنه لم يجد له مكاناً في هذه المنطقة... وأخيراً.. يظهر الكابتن ليسلي.

والآن،تتشابك الأحداث، وينتبه والاس الى أن الرواية غير واقعية في بدايتها ونهايتها. فيحاول أن يضيف بعض الايضاحات، ولكن أصبح الآن من الصعب إضافة شيء أو إدخال تغيير ما عليها.. فهيكل الكتاب أصبح متكاملاً.. وخلال ساعات عليه تسليم النصوص.. وفجأة يشعر بتعب ثقيل، وينظر بالمرآة، فيبدو سيئاً للغاية، ازدادت بدانته وما عادت بدلاته تناسبه. ولون وجهه لايوحي بالصحة أبداً.. وجه امرئ لم يستنشق الهواء الطلق منذ أيام. انه متوتر الأعصاب بصورة لاتصدق. ولاينقصه سوى قسط من الراحة. لو يكف عن مطاردة السرعة.. ويلقي يديه ولو لمرة واحدة في حضنه! وهذا بالذات ما لايستطيعه بعد. إن أصابعه الغليظة لاتعرف كيف تمسك بالأوراق الرقيقة. العرق يتصبب منه.. السير مسافة مئة ميل في الساعة.. أفضل من هذا العمل المرهق.. يفكر بينه وبين نفسه. في الساعة التاسعة مازالت هناك ثلاثون ألف كلمة للطباعة.. وتظهر حبات العرق على جبين والاس.. هل سينتهيان في الوقت يا ترى؟ كلا، انهما لن يستطيعا.. فيهمّ بمساعدتهما.. بالترتيب والثقب.. ويقول لهما بعض الكلمات.. لتنشيطهما.. لكنهما لايسمعان ما يقوله.. لأنهما يضعان سماعات التسجيل على أذنيهما، وينصتان بوجهين عابسين.. ثانية.. ثانيتين.. ومن ثم ينكبان على الطباعة بغضب متضاعف. يبدو أن منظرهما مثير للضحك.. والاس يقف جانباً ويبتسم. أما الخدم فينظرون اليه نظرة مليئة بالاتهام. انهم لايفهمون ما الذي جاء يفعله هنا. فمجرد وجوده يثيرهم.

في الساعة العاشرة أصبحت ١٢ ألف كلمة. والاس يشعر بالغثيان لشدة توتر أعصابه. الآن، لايستطيع أن يجلس هادئاً.. انه يجوب غرفته ذهاباً وإياباً. يأخذ كتاباً.. يتفحص صورة ما.. يدخن سيجارة.. في الساعة الثانية عشرة لم يبق إلا

أربعة آلاف كلمة..

كيف كانت حياة ليسلي؟ انها حياة نظيفة للغاية.. لقد اخترع قصة مطاردة رجال الشرطة له.. لكي يستطيع اقتحام شركة سوتون. لأن سوتون كما ذكرنا كان يهتم بتعيين كل أنواع المنحرفين الخارجين من السجن. ويلفق لهم تهماً يكون هو المسؤول عنها. أي يستخدمهم كطعم لرجال الشرطة.

لقد حاول ذلك مع ليسلي أيضاً.. من هو الكابتن ليسلي؟ انه المفتش الغامض (بارابال) من سكوتلاند يارد.

الواحدة إلاثلث، ينهي كورتيس آخرصفحة، فيقفز من كرسيه ويغتسل.. ويعدل ياقة

قميصه وربطه عنقه، ويرتدي الجاكيت والمعطف.. في الساعة الواحدة الا ربعاً.. تنهي فيوليت آخر صفحة، وتنظم الصفحات الأخيرة.. والاس ينادي بصوت مبحوح: «عد السائق بجنيه.. إذا أوصلك في الموعد المحدد» كورتيس ينزل السلالم بعجلة.. في الساعة الواحدة إلا عشر دقائق كان يجلس في احدى سيارات التاكسي: «شارع فليت.. ولك جنيه.. إذا أوصلتني في الساعة الواحدة تماماً».

الواحدة إلا دقيقة.. يسلم كورتيس النصوص ويحصل على شيك بألف جنيه. كورتيس ينزل السلالم ببطء.. ويشتري صحيفة يومية ويقف في انتظار الباص.

عند عودته يجد أمامه والاس جديداً. لقد أخذ أثناء هذه الفترة حماماً ساخناً وحلق ذقنه وتناول فطوره.. وارتدى بدلته الرمادية.. وهو يتمشى داخل غرفته ويصفّر لحناً جميلاً. والاس يستلم الشيك.. وينظر الى ساعته ويتناول قبعته.. ويقول: «عليّ أن اسرع.. وإلا لن ألحق بالسباق الأول».

بعد مرور عشرة أيام يعاود الشيء ذاته... وبعد مرور ثلاثة أشهر أيضاً..

وبعد مرور نصف سنة كذلك، وبعد ذلك ببضع سنوات.. يكون والاس في هوليوود يعدّ سيناريوهات للأفلام. يصاب بالتهاب رئوي، الطبيب يعلمه في الحال: «هذا الرجل المسن قبل أوانه سوف لن يصمد أمام مرضه.. ». وبعد مرور أيام.. يفارق الحياة. بعد ذلك بأسابيع تنشر الصحف أنه ترك وراءه ما يقارب المليوني جنيه.. ثروته كانت عبارة عن سيارة وأثاث أنيق وقطعة أرض.. وكل ذلك لايساوي إلا (١٣ ألف جنيه).. بينما ديونه تبلغ (١٨ ألف) جنيه.



ادغار رايس بوروز

طرزان

اختيار الاسم كان من أصعب الأشياء.. ادغار رايس كان من البداية يعلق أهميةً كبيرةً بالنسبة للاسم. كيف يسمّي انساناً ترعرع وتربى مع القردة؟

يجب أن يكون الاسم من وحي القردة نفسها.

أيام طوال وبوروزيفكر في ذلك.. في اسم قصير وسهل اللفظ. لقد عمل كمؤلف النوتة، يزن الأصوات ويخرج الأحرف والأشكال وينطقها بصوت عال. وأخيراً، وجد الاسم الأنسب. كان أقرب الى صوت البوق منه الى الاسم. انه كصرخة حيوان الأدغال الوحشي: طرزان. تأليف القصة كان أسهل بكثير! «طرزان» كان في الفصل المقرر شاباً يبلغ (الـ٢٥) من العمر.. وقصته تبدأ قبل ولادته بكثير.. أي عام ١٨٨٨.

في أحد أيام (مايو) لعام ١٨٨٨ يبحر اللورد (جون جرايستوك) وزوجته (أليس) على الباخرة (فوالدا) بمهمة سرية من (دوفر) الى أفريقيا مبعوثاً من قبل السلطة المستعمرة.. للقيام بالتجسس على نظام أوروبي آخر في افريقيا. لكن الرحلة البحرية لم تتم على وجهها المثالي. كان ملاحو الباخرة من المجرمين، والقبطان رجل سيء يهدد بضبط النظام بمسدسه.. وتقع المعركة، ويصاب الكثيرون، ويخشى القبطان أن يتعرض للعقوبة فيما إذا عاد اللورد وزوجته الى لندن. لذلك يأمر بإنزالهما واعطائهما بعض الصناديق على الساحل الافريقي. اللورد وزوجته لم ييأسا. بل قاما ببناء كوخ من الخشب.. مع أن الزوجة وضعت طفلها وفارقت الحياة بعد ذلك بأيام.

في الادغال بالقرب منهم كانت تعيش فصيلة من القردة العملاقة أضخم من الغوريلا بكثير.. وللملاحظة فقط، فان هذه الفصيلة هي من اختراع بورروز ذاته. ملك القردة العملاقة هذه كان يدعى «كرشوك» ووزنه لا يقل عن (٣٥٠) كغ، إضافةً الى القردة (كالا) التي توفي مولودها. ولم يخف على القردة وصول الغرباء طبعاً. كانت القردة تحوم حول الكوخ بفضول. وأخيراً استطاعت الهجوم وقتل اللورد. ولولا (كالا) لكان مصير الطفل الموت أيضاً..

سرقت (كالا) الطفل معتقدةً أنه قرد أبيض، وأطلقت عليه اسم طرزان، ويعني بلغة القردة «الجلد الأبيض».

وهكذا.. ينمو طرزان قوياً وذكياً وصياداً ماهراً.. يتحلى بالشجاعة والسرعة وصرخته المزمجرة تجعل كل الحيوانات ترتعش خوفاً. حالياً ما زال يعتقد بأنه قرد.. ولكن في أحد الأيام..

لندع بورروز نفسه يقصّ علينا ذلك: «سطح الماء الهادئ يعكس وجهين.. القرد ووحشيته والشاب الجميل ذا التقاطيع الارستقراطية.. طرزان أصابه الهلع.. انه لمخجل أن يكون أملس دون شعر.. وشق الفم هذا والأسنان الصغيرة الناعمة، يا للشقاء.. في مواجهة أفواه إخوانه الكبيرة وأيديهم الضخمة. وهذا الأنف الرفيع الصغير المقوس بعض الشيء احمرت وجنتاه عندما قارنه بأنوف رفاقه العريضة».

قصة غير مألوفة.. أليس كذلك؟ هذا ما يحسه الناس أيضاً، عندما يقرؤونها عند صدورها عام ١٩١٤. الصحفيون يحاصرون بورروز ليستعلموا منه كيف خطر بباله موضوع كهذا؟ طرزان أحرزت نجاحا ساحقاً منذ صدورها كمسلسل في جريدة.

أما كيف تعلّم الكتابة وأين؟

«إني لم أتعلم الكتابة قط» يقول بورروز. فعلاً، فمظهره لا يدل على ذلك اطلاقاً. انه متوسط الطول خشن البنية وشعره قصير. ويقف دائماً أثناء الحديث بحالة مستفزة، يتكلم قليلاً وبكلمات مقتضبة.. كالعسكري. يعتقد المرء لأول وهلة أن القضية تخص أحد جنوده. ويهجم الصحفيون من جديد «وصفة النجاح يا سيد بورروز، وصفة النجاح» وهذا ما يصرح به بورروز: «لتأليف رواية جديدة على المرء أن يكون: ١- انساناً خائب الأمل، ٢- فشل على كافة الصعد، ٣- أن يكون قد عاش حياة بغيضة لا تحتمل، غير مثيرة للاهتمام، ٤- جزء كلي من الحياة الحضارية، ٥- أن يملك ذكاءً عادياً وطموحات اعتيادية، ٦- ألاّ يتقن القواعد اللغوية.. وقراءاته

قليلة، ٧- يخوض بمواضيع غير مفهومة».

الصحفيون يكتبون كل ذلك.. والجرائد ستنشره.. سوف لن يصدقوا أن شخصاً استطاع أن يؤلف كتاباً درامياً ومثيراً مثل طرزان تكون حياته اعتيادية وغير مثيرة للاهتمام.

لكنها كانت هكذا بالفعل.. كما صرّح بوروز.

الأب كان (ميجور) ابانَ الحرب الأهلية.. افتتح له خمارة وبعدها أخذ ينتج البطاريات الكهربائية. لم يكن سعيداً أبداً، كان يود العودة الى الحياة العسكرية بالرغم من كبر سنه.. كان يتحدث عن الحرب بصورة متواصلة. (ادغار) المولود عام ١٨٧٥ كان يستمع اليه حتى منتصف الليل. وهنا تولدت أمنيته لركوب الخيل وخوض الحرب والقيام بمغامرات شتى.

وكان للميجور بوروز عادة القراءة بصوت عال أمام عائلته. ادغار كان لا يعير ذلك أدنى اهتمام كما كان لا يتفهم ظاهرة الكتابة والتأليف عموماً. ولا يريد الاحتكاك بأناس كهؤلاء. قدم الامتحانات الاختبارية في الاكاديمية العسكرية وفشل فيها.. بعدها صمم على الالتحاق بالجيش. وتدرب على ركوب الخيل في الفرقة السابعة. كان ذلك شيئاً ممتعاً لكن، الضباط اضطروا لتقديم شكوى عن عدم ضبطه للنظام. لم يفكر يوماً بإطلاق الرصاص. إذا جاء أحدهم ليلاً ولم يخضع لندائه «قف وإلا أطلقت النار»، كان يعتقد بأنه رفيق عاد مخموراً.. فلم بحقّ السماء يتحتم عليه اطلاق النار؟

بعد انتهاء الحرب اليابانية الصينية عام ١٨٩٥ يطلب الالتحاق بالجيش في الصين.. ولكن طلبه يُرفض، فيحاول الالتحاق بالجيش في نيكاراغوا.. ولكنه يرفض. ويحاول التطوع في فرقة (تيودور روزفلت) ولكنه يرفض أيضاً. ما الذي سيقدم عليه؟ ولاسيما أنه كان في سن يسمح له بالاعتماد على نفسه وتوفير مصروفه..

الأب الذي استغنى عن مشروعه لم يعد قادراً على مساعد ابنه. خلال الاثني عشر عاماً يحترف كل أصناف الحرب، والفشل كان دائماً يصاحبه.

ساعد أخاه في المزرعة في (أماهو) لكنه لا يصلح أن يكون مزارعاً. وافتتح مع أخيه الثاني محلاً لكنه سرعان ما اغلق. وذهب الى «اوركون» ليعمل كمصفّ للذهب.. لكنه لم يعتد على الذهب هناك. بعدها أخذ يبيع المصابيح الكهربائية، لكن

لا أحد هناك يود الشراء، ثم حاول بيع الحلويات وعمل مع القساوسة المتزمتين طالباً للاحسان. كل الأبواب كانت تغلق بوجهه، لأنه لم يكن يجد الكلمات المناسبة.. بماذا أصرح بعد ذلك؟ «فشل على كافة الصعد» ربما كانت الجرأة تنقصه وربما كان يدفن مواهبه.. لابد أنه كان يمتلك احداهما. عمل بعدها بائعاً للكتب.. وترك انطباعاً جيداً.. الرئيس كان لا يفهم شيئاً في صنعة الكتب.. لذا عين ادغار فوراً.. ليقوم بالحسابات منذ الصباح حتى الليل.

ودائماً الحسابات هذه.. التي لم تكن صحيحة أبدا.

في هذه الأثناء كان قد تزوج وأنجب طفلة.. وما كان يملكه من رأس مال ضئيل افتتح به محلاً لبيع الحاجات المنزلية.. وما لبث أن خسر المحل، فاضطر الى بيعه، وانتقل الى مهنته الثانية التي كانت اعطاء الارشادات والنصائح للتجار بالمراسلة عن كيفية استخدام الطرق التي تؤدي الى المشاريع الناجحة.. انها سخرية القدر، هو الذي لم يحصل على النجاح يوماً.. يدّعي بأنه يعرف الطرق والأسرار التي تؤدي اليه. مهمة جديدة. استقالات جديدة. انتكاسات جديدة. وأتاه المولود الجديد.. اضطر أن يرهن حلي العائلة وساعة يده. كان يغلي غضباً عندما يواسيه والده: «الفقر ليس عاراً». قد يكون كذلك لكنه لا يخلو من الاذلال. زوجته كانت تحصل بالكاد على قطعة الرغيف واللحم.. كانوا غارقين بالديون.. حتى للطبيب والصيدلية.

في عام ١٩٠٥ أصبح عمره يناهز الثلاثين عاماً.. وقد أضاع من يديه ثماني عشرة فرصة للعمل.. حياة المغامرات كانت تغويه.. كم كان بوده أن يصبح راعي بقر (كاوبوي) لولا عائلته.

وأصبح مندوباً لـ(الكولا). انها وسيلة أخاذة للمدمنين على الخمر.. أي ضد الادمان، الحيلة في ذلك كانت تكمن في اجتذاب المدمن لشربه. كان عليه أن يقوم بنشر اعلان في الجرائد.. بوروز لم يكن يملك النقود الكافية لذلك. إذاً لا مجال إلا في الجرائد الرخيصة.

وأخذ ينشر الاعلانات.. وهذا ما حثه على شراء المجلات وقراءتها. كان يقرأ الروايات المسلسلة والقصص القصيرة فيها. مع أنه كان لا يهتم بهذه النماذج من الناس التي تؤلف، والذين كانوا يقبضون النقود عن كل هذه القذارات. وإذا كانوا يدفعون لهؤلاء فلم لا يدفعون له أيضاً وهو أحوج منهم اليها؟ ولكن ما عساه أن

يكتب؟ فهو لم يعش شيئاً يستحق الذكر.

كلا، انه لم يعش شيئاً.. وهذا لا يعني بأنه لا يعرف قصصاً. لقد ابتدع قصصاً كثيرة عن رجال وحيدين في المزارع محاطين الهنود.. يصارعون من أجل حياتهم ولم ينجوا إلا بأعجوبة.. البيض وليس الهنود طبعاً.

القصة تدور في هضاب أمريكا الشمالية في الغرب الوحشي، في استراليا، وأفريقيا.. فكلما كانت المسافة أبعد.. كان ذلك أفضل. وكلما كانت معرفته بهذه البلدة أو تلك قليلة، كان في ذلك اخصاب لخياله. كان يبتدع مخلوقات لا وجود لها على كوكبنا الأرضي.. من المريخ، من القمر، والكواكب الأخرى.. كل هذه الخيالات الليلية لا يعرف بها أحد، حتى زوجته. فهي لا تملك وقتاً كافياً. إذ أن وقتها مكرس لأطفالها الثلاثة. ولو علمت بما يدور في رأس زوجها ليلاً لضربت رأسها. في احدى الليالي كادت تكتشف ذلك عندما صرخ زوجها وتقلب في فراشه والعرق يتصبب من جبينه. لقد كان يصارع أحد مخلوقاته الأسطورية.

في صباح اليوم التالي أرادت زوجته أن ترسله لطبيب الأسنان، فالأمريكيون يعتقدون أن الأمراض كافةً مصدرها الأساسي الأسنان. وبعد مرور عشرين عاماً.. ربما تجرجره الى المحلل النفساني.

ادغار يرفض الذهاب الى طبيب الأسنان، وهذا من حسن حظه.. بدلاً من ذلك، جلس وبدأ قصته «دياتوريس ملكة المريخ». بعد انتهائه من نصف الرواية يستغني عنها ويقول: «من الذي سيقرؤها ويشتريها؟» ولكن بامكانه أن يسأل الناس. فيرسل النصوص غير الواضحة لدار النشر. ويأتيه الجواب عاجلاً: نعم النصوص قد أعجبتني. أرسل بقية القصة. ويعرض على ادغار إنهاء القصة. ويدفع الناشر كامل حقوق الطبع (٤٠٠دولار).

٤٠٠دولار: بهذه السهولة إذاً! في المستقبل سيغرف ادغار النقود بالآلاف بهذه السهولة. فيستمر في الكتابة! وبالمناسبة ليس أمامه أية طريقة أخرى. بورروز يكتب رواية مريخ ثانية. انه مقتنع تماماً بأن كتابته رديئة ويتوقع عدم موافقة الناشر.. ولكنها تنال الرضا وتنشر ويقبض حقوقه. لقد اكتفى بورروز من قصص المريخ نهائياً.

انه يذكر كتاب لـ(ستانلي): «في أفريقيا السوداء». لقد شده تماماً. لماذا لا يحاول تأليف رواية تدور أحداثها في أفريقيا السوداء أيضاً؟ حتى هناك بإمكانه اطلاق الحرية التامة لخياله. الناس لا تعرف إلا القليل عن أفريقيا.. أقل مما تعرف

عن المريخ.

انه يملك الفكرة. قصة صبي تربيه قردة. هذه هي الفكرة التي تملكته عندما رأى لوحة تصور (رومولوس ورموس) ترضعهما ذئبة. انه لا يعرف شيئاً عن تقنية الرواية وأقل منها الجغرافيا والقواعد اللغوية انه لا يعيرها أدنى اهتمام، ولا يعتقد بضرورة مراعاة الكاتب للتسلسل الزمني أو اعطاء الجمل أية قيمة: «سيقف ذلك عائقاً للنتاج الطبيعي -الفطري». انه يكتب ما تتقبله الورقة عادة: «فقط هكذا تظل الكلمات حية» والتصحيح «أقوم به فقط عندما يكون الحدث قد تطور بشكل غير صحيح. ثم أعود وأستمر كالبرق ثانية».

فإذاً، طفل تربيه قردة. لورد من نسب عريق، وامرأة جميلة. في الكوخ يعثر على كتابات حيوانات.. ويحتوي على مخلوقات دُوِّنت أسماؤها كالتالي: أ=انسان.. وينتابه الهلع.. انه انسان إذاً. هناك صور أخرى ف=فرد، ق=قبل ويكتشف الحروف الهجائية.. ويتعلم الانكليزية دون أن يعرف نطقها. يجد قلم رصاص ويبدأ يخط على الطاولة محاولاً تقليد الحروف.. حتى الآن كان يقتل الأهالي دون أن يشعر بشيء ما.. ويكتشف الآن انهم: (أ=انسان) مثله. لا يقدر بعد الآن أن يمس لحم الانسان أبداً. تتطور قواه العقلية ويأخذ شعوره بالوحدة يتفاقم بين رفاقه.

في أحد الأيام ترسو سفينة على الساحل المهجور، تابعة للبروفيسور آرخميدس ك.بورتر، وابنته الجميلة (جين) وأحد الانكليز (جون كلايتون) ابن أخ اللورد (جرايستوك)، بحثاً عن الكنوز الدفينة. أما طرزان فيقوم بوضع ورقة على باب الكوخ كتب عليها: «هذا كوخ طرزان الذي قتل الحيوانات الوحشية وبعض الرجال السود.. فاحذروا وابتعدوا عن أشيائه». ومن بين أغصان الأشجار كان طرزان يراقب الفتاة الجميلة.

ويقوم بانقاذها بعد ذلك أمام (شيتا) من النمر فيقطع رقبته بيديه العاريتين ويطلق صرخة النصر. (جين) تعجبت من هذا الرجل القوي شبه العاري، وشعره الأسود ينساب فوق كتفيه.. وصدره الأسمر تزينه ميدالية ثمينة من الياقوت.. تقوم جين بفتحها وتفاجأ بما في داخلها انها صورة اللورد (جرايستوك) وزوجته، وتعجب للشبه الكبير بينهما وبين طرزان.

خلال هذه الفترة يعثر في الكوخ على الهيكلين العظميين لكل من اللورد

وزوجته.. هناك من قام بدفنهما مع القرد كالا الصغير.

طرزان يهم بكتابة رسالة غرامية لجين: «أنا القرد طرزان، أشتاق اليك، أنا لك وأنت لي.. من أجلك أذهب للصيد.. أنا أكبر صيادي الادغال. طرزان يحبك..»

أما الكنز فيعثر عليه البروفيسور.. صندوق كبير مليء بالأوراق النقدية، يسطو طرزان عليها ويختفي على طريقة القردة. بعد هذه الحادثة يقررون الرحيل الى (بالتيمور). كم هو حزين ووحيد طرزان الآن!

وفجأة يظهر أحد المكتشفين.. انه الضابط الفرنسي (بول دارنو).. لكنه سرعان ما يقع رهينة بين الأهالي.. الذين يقومون بالاستعدادات اللازمة لطبخه. طرزان يقوم بانقاذه، وينقله الى أعماق الأدغال ويعتني به. ويدهش الضابط لاكتشافه أن طرزان يعرف كتابة الانكليزية ولكنه لا يتكلمها. فيعلمه الفرنسية ومسائل أخرى كثيرة.. يمنعه من أكل اللحم النيء ويقص عليه حكايات عن البشر. ولامتنانه، يقص طرزان قصة حياته بل ويخبره بمكان الكنز. في الكوخ يجد (بول) مذكرات اللورد (جرايستوك) وعليه آثار بصمات طفل: «إذا عدنا ثانية بامكاننا أن نفحص البصمات إذا كنت أنت يا طرزان ابن اللورد جرايستوك»، يعده الضابط (بول دارنو).

ويأتي اليوم المنتظر.. الذي ينطق فيه طرزان كلمة الوداع لحياة الأدغال ويسافر مع الضابط (بول دارنو) الى باريس.. حيث يسلم آثار البصمات لأحد المختصين مع بصمات طرزان الحالية.. ويسافر طرزان بعدها مباشرة الى بالتيمور ويلتقي جين ويبث لها ما في قلبه من حب: «لقد جئت من ماض مظلم بعيد، من بشر الأدغال، لكي أطلب منك أن تصبحي زوجتي.. من أجلك عبرت البحار، واليابسة، وإكراماً لك، سأكون أي شيء تطلبينه.. بامكاني اسعادك.. فهل تقبلينني شريكاً لحياتك؟».

ويصيبهاالتردد، أتحب ابن أخ اللورد جرايستوك أم طرزان؟

وأخيراً تصله برقية دارنو من باريس: البصمات أثبتت بأنك ابن اللورد جرايستوك نهائياً».

لكن طرزان يدرك انه لا يمكن لامرئ أن يطلب من فتاة أمريكية الزواج بانسان عاش معظم حياته في الأدغال. لذا فلتكن لكلايتون. ويتنازل طرزان عن كل شيء، عن لقبه وارثه الذي يبلغ (٢٤١٠٠٠) دولار. الفتاة تود أن تعرف كيف وصل طرزان الى الأدغال. ويرد طرزان بكل هدوء: «ولدت هناك، والدتي كانت قردة ومن البدهي

لم يكن بامكانها أن تفهمني أكثر من ذلك.. أما من هو والدي الحقيقي فهذا ما لم أستطع اكتشافه».

بهذه الكلمات ينهي بورروز روايته.

أثناء صدور الكتاب كمسلسل كانت رسائل القراء تنهمر محتوية على معلومات حول افريقيا وعلم الحيوان. لقد تحدث المؤلف عن وجود النمر (سابور).. وفي الواقع لا وجود للنمور في افريقيا. أحد القراء من (جوهانسبرغ) يرسل للجريدة قائلاً أن في أفريقيا تكثر الفهود وهي شبيهة بالنمور، وهذا ما كان بورروز يعنيه. ولكن الاثنين معاً كانا على خطأ.. لأن بورروز صور «سابور» كأسد.

ما العمل، هذا ما يود الناس قراءته. عندما يصارع طرزان الأسود وعندما يقتل ألد أعدائه، الغوريلا، وعندما يهاجم سكان الأدغال، وعندما ينصرف طرزان إلى ملجئه للتأمل. كل ذلك يترك انطباعاً مثيراً يصل أحياناً لدرجة الارتعاش لدى القراء الذين كانوا يتهافتون على شراء الجريدة.. ودون علم كان (ادغار رايس بورروز) قد حقق الأمنيات الدفينة لدى الرجال والنساء والفتيات والفتيان.. الذين يحلمون بقوة طرزان وصلابته أو على الأقل يودون كسب وده وحبه أيضاً. طرزان هو تجسيد الأحلام والأمنيات بالنسبة للملايين. وهذا ما أكده نقاد أول طبعة من كتابه.. ليس خلال أسابيع وأيام بل خلال ساعات. القراء يفرضون مطاليبهم.. بتكملة الرواية. ماذا سيحل بطرزان؟

بورروز يبدأ باكمال روايته.. ويطلق عليها عنوان «عودة طرزان». انها تحكي عودة طرزان لساحل بلاده.. يعود لحياة الغابة القديمة ويصبح رئيساً لقبيلة أهالي الأدغال. ويقوم بمغامرات عديدة.. ويصل الى المدينة الأسطورية الذهبية (اوبسار).. وأخيراً.. وكأي نهاية سعيدة يعود الى اوروبا كابن للورد جرايستوك.

نهاية سعيدة؟ كلا، لقد فهم المؤلف ما لم يفهمه الناشر.. كتاب طرزان الثاني لن يشبع فضول القراء. الحلم الأزلي يبقى.. والقراء لا يستغنون عن القراءة..

يريدون معرفة ما سيأتي.. وهذا لن يجر الى نهاية. وبورروز كان مؤمناً أن ما أنتجه لا شأن للأدب والقيمة الفنية فيه، وهذا ما سهل مهمته في تأليف روايات طرزان دائماً. لقد ألف معظمها في لياليه الأرقة. أخيراً، لقد وجد له منجم ذهب كان يحلم به طيلة حياته.

نتاجاته:

يكتب؟ فهو لم يعش شيئاً يستحق الذكر.

كلا، انه لم يعش شيئاً.. وهذا لا يعني بأنه لا يعرف قصصاً. لقد ابتدع قصصاً كثيرة عن رجال وحيدين في المزارع محاطين الهنود.. يصارعون من أجل حياتهم ولم ينجوا إلا بأعجوبة.. البيض وليس الهنود طبعاً.

القصة تدور في هضاب أمريكا الشمالية في الغرب الوحشي، في استراليا، وأفريقيا.. فكلما كانت المسافة أبعد.. كان ذلك أفضل. وكلما كانت معرفته بهذه البلدة أو تلك قليلة، كان في ذلك اخصاب لخياله. كان يبتدع مخلوقات لا وجود لها على كوكبنا الأرضي.. من المريخ، من القمر، والكواكب الأخرى.. كل هذه الخيالات الليلية لا يعرف بها أحد، حتى زوجته. فهي لا تملك وقتاً كافياً. إذ أن وقتها مكرس لأطفالها الثلاثة. ولو علمت بما يدور في رأس زوجها ليلاً لضربت رأسها. في احدى الليالي كادت تكتشف ذلك عندما صرخ زوجها وتقلب في فراشه والعرق يتصبب من جبينه. لقد كان يصارع أحد مخلوقاته الأسطورية.

في صباح اليوم التالي أرادت زوجته أن ترسله لطبيب الأسنان، فالأمريكيون يعتقدون أن الأمراض كافةً مصدرها الأساسي الأسنان. وبعد مرور عشرين عاماً.. ربما تجرجره الى المحلل النفساني.

ادغار يرفض الذهاب الى طبيب الأسنان، وهذا من حسن حظه.. بدلاً من ذلك، جلس وبدأ قصته «دياتوريس ملكة المريخ». بعد انتهائه من نصف الرواية يستغني عنها ويقول: «من الذي سيقرؤها ويشتريها؟» ولكن بامكانه أن يسأل الناس. فيرسل النصوص غير الواضحة لدار النشر. ويأتيه الجواب عاجلاً: نعم النصوص قد أعجبتني. أرسل بقية القصة. ويعرض على ادغار إنهاء القصة. ويدفع الناشر كامل حقوق الطبع (٤٠٠دولار).

٤٠٠دولار: بهذه السهولة إذاً! في المستقبل سيغرف ادغار النقود بالآلاف بهذه السهولة. فيستمر في الكتابة! وبالمناسبة ليس أمامه أية طريقة أخرى. بورور يكتب رواية مريخ ثانية. انه مقتنع تماماً بأن كتابته رديئة ويتوقع عدم موافقة الناشر.. ولكنها تنال الرضا وتنشر ويقبض حقوقه. لقد اكتفى بورور من قصص المريخ نهائياً.

انه يذكر كتاب لـ(ستانلي): «في أفريقيا السوداء». لقد شده تماماً. لماذا لا يحاول تأليف رواية تدور أحداثها في أفريقيا السوداء أيضاً؟ حتى هناك بإمكانه اطلاق الحرية التامة لخياله. الناس لا تعرف إلا القليل عن أفريقيا.. أقل مما تعرف

عن المريخ.

انه يملك الفكرة. قصة صبي تربيه قردة. هذه هي الفكرة التي تملكته عندما رأى لوحة تصور (رومولوس ورموس) ترضعهما ذئبة. انه لا يعرف شيئاً عن تقنية الرواية وأقل منها الجغرافيا والقواعد اللغوية انه لا يعيرها أدنى اهتمام، ولا يعتقد بضرورة مراعاة الكاتب للتسلسل الزمني أو اعطاء الجمل أية قيمة: «سيقف ذلك عائقاً للنتاج الطبيعي -الفطري». انه يكتب ما تتقبله الورقة عادة: «فقط هكذا تظل الكلمات حية» والتصحيح «أقوم به فقط عندما يكون الحدث قد تطور بشكل غير صحيح. ثم أعود وأستمر كالبرق ثانية».

فإذاً، طفل تربيه قردة. لورد من نسب عريق، وامرأة جميلة. في الكوخ يعثر على كتابات حيوانات.. ويحتوي على مخلوقات دُوِّنت أسماؤها كالتالي: أ=انسان.. وينتابه الهلع.. انه انسان إذاً. هناك صور أخرى ف=فرد، ق=قبل ويكتشف الحروف الهجائية.. ويتعلم الانكليزية دون أن يعرف نطقها. يجد قلم رصاص ويبدأ يخط على الطاولة محاولاً تقليد الحروف.. حتى الآن كان يقتل الأهالي دون أن يشعر بشيء ما.. ويكتشف الآن انهم: (أ=انسان) مثله. لا يقدر بعد الآن أن يمس لحم الانسان أبداً. تتطور قواه العقلية ويأخذ شعوره بالوحدة يتفاقم بين رفاقه.

في أحد الأيام ترسو سفينة على الساحل المهجور، تابعة للبروفيسور آرخميدس ك.بورتر، وابنته الجميلة (جين) وأحد الانكليز (جون كلايتون) ابن أخ اللورد (جرايستوك)، بحثاً عن الكنوز الدفينة. أما طرزان فيقوم بوضع ورقة على باب الكوخ كتب عليها: «هذا كوخ طرزان الذي قتل الحيوانات الوحشية وبعض الرجال السود.. فاحذروا وابتعدوا عن أشيائه». ومن بين أغصان الأشجار كان طرزان يراقب الفتاة الجميلة.

ويقوم بانقاذها بعد ذلك أمام (شيتا) من النمر فيقطع رقبته بيديه العاريتين ويطلق صرخة النصر. (جين) تعجبت من هذا الرجل القوي شبه العاري، وشعره الأسود ينساب فوق كتفيه.. وصدره الأسمر تزينه ميدالية ثمينة من الياقوت.. تقوم جين بفتحها وتفاجأ بما في داخلها انها صورة اللورد (جرايستوك) وزوجته، وتعجب للشبه الكبير بينهما وبين طرزان.

خلال هذه الفترة يعثر في الكوخ على الهيكلين العظميين لكل من اللورد

وزوجته.. هناك من قام بدفنهما مع القرد كالا الصغير.

طرزان يهم بكتابة رسالة غرامية لجين: «أنا القرد طرزان، أشتاق اليك، أنا لك وأنت لي.. من أجلك أذهب للصيد.. أنا أكبر صيادي الادغال. طرزان يحبك..»

أما الكنز فيعثر عليه البروفيسور.. صندوق كبير مليء بالأوراق النقدية، يسطو طرزان عليها ويختفي على طريقة القردة. بعد هذه الحادثة يقررون الرحيل الى (بالتيمور). كم هو حزين ووحيد طرزان الآن!

وفجأة يظهر أحد المكتشفين.. انه الضابط الفرنسي (بول دارنو).. لكنه سرعان ما يقع رهينة بين الأهالي.. الذين يقومون بالاستعدادات اللازمة لطبخه. طرزان يقوم بانقاذه، وينقله الى أعماق الأدغال ويعتني به. ويدهش الضابط لاكتشافه أن طرزان يعرف كتابة الانكليزية ولكنه لا يتكلمها. فيعلمه الفرنسية ومسائل أخرى كثيرة.. يمنعه من أكل اللحم النيء ويقص عليه حكايات عن البشر. ولامتنانه، يقص طرزان قصة حياته بل ويخبره بمكان الكنز. في الكوخ يجد (بول) مذكرات اللورد (جرايستوك) وعليه آثار بصمات طفل: «إذا عدنا ثانية بامكاننا أن نفحص البصمات إذا كنت أنت يا طرزان ابن اللورد جرايستوك»، يعده الضابط (بول دارنو).

ويأتي اليوم المنتظر.. الذي ينطق فيه طرزان كلمة الوداع لحياة الأدغال ويسافر مع الضابط (بول دارنو) الى باريس.. حيث يسلم آثار البصمات لأحد المختصين مع بصمات طرزان الحالية.. ويسافر طرزان بعدها مباشرة الى بالتيمور ويلتقي جين ويبث لها ما في قلبه من حب: «لقد جئت من ماض مظلم بعيد، من بشر الأدغال، لكي أطلب منك أن تصبحي زوجتي.. من أجلك عبرت البحار، واليابسة، وإكراماً لك، سأكون أي شيء تطلبينه.. بامكاني اسعادك.. فهل تقبلينني شريكاً لحياتك؟».

ويصيبهاالتردد، أتحب ابن أخ اللورد جرايستوك أم طرزان؟

وأخيراً تصله برقية دارنو من باريس: البصمات أثبتت بأنك ابن اللورد جرايستوك نهائياً».

لكن طرزان يدرك انه لا يمكن لامرئ أن يطلب من فتاة أمريكية الزواج بانسان عاش معظم حياته في الأدغال. لذا فلتكن لكلايتون. ويتنازل طرزان عن كل شيء، عن لقبه وارثه الذي يبلغ (٢٤١٠٠٠) دولار. الفتاة تود أن تعرف كيف وصل طرزان الى الأدغال. ويرد طرزان بكل هدوء: «ولدت هناك، والدتي كانت قردة ومن البدهي

لم يكن بامكانها أن تفهمني أكثر من ذلك.. أما من هو والدي الحقيقي فهذا ما لم أستطع اكتشافه».

بهذه الكلمات ينهي بورروز روايته.

أثناء صدور الكتاب كمسلسل كانت رسائل القراء تنهمر محتوية على معلومات حول افريقيا وعلم الحيوان. لقد تحدث المؤلف عن وجود النمر (سابور).. وفي الواقع لا وجود للنمور في افريقيا. أحد القراء من (جوهانسبرغ) يرسل للجريدة قائلاً أن في أفريقيا تكثر الفهود وهي شبيهة بالنمور، وهذا ما كان بورروز يعنيه. ولكن الاثنين معاً كانا على خطأ.. لأن بورروز صور «سابور» كأسد.

ما العمل، هذا ما يود الناس قراءته. عندما يصارع طرزان الأسود وعندما يقتل ألد أعدائه، الغوريلا، وعندما يهاجم سكان الأدغال، وعندما ينصرف طرزان إلى ملجئه للتأمل. كل ذلك يترك انطباعاً مثيراً يصل أحياناً لدرجة الارتعاش لدى القراء الذين كانوا يتهافتون على شراء الجريدة.. ودون علم كان (ادغار رايس بورروز) قد حقق الأمنيات الدفينة لدى الرجال والنساء والفتيات والفتيان.. الذين يحلمون بقوة طرزان وصلابته أو على الأقل يودون كسب وده وحبه أيضاً. طرزان هو تجسيد الأحلام والأمنيات بالنسبة للملايين. وهذا ما أكده نقاد أول طبعة من كتابه.. ليس خلال أسابيع وأيام بل خلال ساعات. القراء يفرضون مطالبهم.. بتكملة الرواية. ماذا سيحل بطرزان؟

بورروز يبدأ باكمال روايته.. ويطلق عليها عنوان «عودة طرزان». انها تحكي عودة طرزان لساحل بلاده.. يعود لحياة الغابة القديمة ويصبح رئيساً لقبيلة أهالي الأدغال. ويقوم بمغامرات عديدة.. ويصل الى المدينة الأسطورية الذهبية (اوبسار).. وأخيراً.. وكأي نهاية سعيدة يعود الى اوروبا كابن للورد جرايستوك.

نهاية سعيدة؟ كلا، لقد فهم المؤلف ما لم يفهمه الناشر.. كتاب طرزان الثاني لن يشبع فضول القراء. الحلم الأزلي يبقى.. والقراء لا يستغنون عن القراءة..

يريدون معرفة ما سيأتي.. وهذا لن يجر الى نهاية. وبورروز كان مؤمناً أن ما أنتجه لا شأن للأدب والقيمة الفنية فيه، وهذا ما سهل مهمته في تأليف روايات طرزان دائماً. لقد ألف معظمها في لياليه الأرقة. أخيراً، لقد وجد له منجم ذهب كان يحلم به طيلة حياته.

نتاجاته:

(حيوانات طرزان ١٩١٦)، (ابن طرزان ١٩١٧)، (طرزان وكنوز أوبار ١٩١٨)، (طرزان وحكايات الأدغال ١٩١٩)، (طرزان الجبار ١٩٢٠)، (طرزان المخيف ١٩٢١)، (طرزان والأسد الذهبي ١٩٢٣) (طرزان ورجال النمل ١٩٢٥) (التوأمان طرزان ١٩٢٧)، (طرزان سيد الأدغال ١٩٢٨)، (طرزان والمملكة الضائعة ١٩٢٩)، (طرزان الذي لا يقهر ١٩٣١)، (طرزان يعترف ١٩٣٢)، (طرزان ومدينة الذهب ١٩٣٣)، (طرزان والأسود ١٩٣٤)، (طرزان والفهد ١٩٣٥)، (طرزان في خطر ١٩٣٦).

وبذلك، يصبح بوروز من أغنى الرجال. انه يستطيع الآن تحقيق أحلام شبابه.. الهروب من المدينة الكبيرة.. هل يذهب الى افريقيا.. مسرح رواياته؟ انه لا يفكر بذلك بتاتاً.. في كاليفورنيا يبتاع له مزرعة كبيرة ويؤسس مدينة لا تبعد عن هوليود الا بضع ساعات ويطلق عليها اسم «طرزان». أخيراً سيعيش كما أراد أن يعيش دائماً، بندقية متدلية على كتفه وقبعة عريضة وجواد يقطع به المسافات الشاسعة على أرضه، ويرعى الأبقار، ويستمر بإنتاج روايات طرزان.

وتأتيه الضربة القاسية، وينهار مشروع المزرعة، مجاري المياه لا تعمل.. وتموت المواشي. انه ليس بتاجر فيضطر لبيع المزرعة ونادي الغولف ويداهمه الافلاس ثانية. أما طرزان فمن الطبيعي انه يزدهر وتمتد شهرته. بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى يذيع صيته في كل أوروبا ويغدو بوروز في انكلترا من أشهر رجالها وتترجم روايات طرزان الى جميع اللغات الأوروبية.. وثم الى الهندوسية والعربية والايسلندية. باختصار تترجم الى ٥٦ لغة.

تربع طرزان على عرش هوليوود عام ١٩١٨ حيث برزت أفلام طرزان الفعلية بعد ظهور الأفلام الناطقة. إنه شيء مختلف تماماً أن يرى الجمهور الصرخة بدلاً من أن يسمعونها فقط.

ولكن من كان يطلق هذه الصرخة؟ وكيف؟ الشابان (ارفينغ تالبرغ) والمنتج ماكس راينهارت مكتشف غريتا غاربو.. يؤمنان أن أفلام طرزان ستدر عليهما أرباحاً طائلة، فكررا الجهود لصرخة طرزان على وجه الخصوص. لأسابيع وشهور طوال وهما يجريان كل الوسائل والنماذج.. ومن ثم يقذفانها جانباً.

وتنشأ أخيراً الصرخة الممزوجة. مؤلفة من خمسة أصوات:

١- صرخة انسان حادة.

٢- صرخة حيوان مكتومة.

٣- صوت مرتجف لطبقة صوتية.

٤- عواء كلب قوي.

٥- حك على وتر الكمان.

ويسند تالبرغ دور طرزان للرياضي المثالي (جوني ويسمولر). انه قوي البنية وجميل، لكنه لا يتمتع بدرجة عالية من الذكاء. قام بدور طرزان لسنوات عديدة، وعندما داهمه الزمن.. كبر وترهل جسده.. فاضطروا لاستبداله بشاب صغير، الناس جميعاًتشيخ وتترهل أجسادها، الا طرزان يظل قوياً وشاباً.

شركة «متروغولدين ماير» منتجة أفلام طرزان لها همومها، تقوم بانتاج كثير لكنه باهظ الثمن. انهم لا يصورون الا في الصيف.. وتغير الجو له دوره الحاسم. أحياناً يضطر كل من الممثلين والكومبارس انتظار تغير الجو. وكم هو صعب اسناد الأدوار للحيوانات وللأسد الذي يهرب دائماً أثناء التصوير ولكن ليس بالاتجاه المطلوب. وطيور (الفلامنغو) والحمير الوحشية تتراكض عند سماعها صوت الكاميرات. والفيل (كويني) يصيبه العناد.. ولا يتزحزح من مكانه.. أما وحيد القرن فيهجم على المزارع ويأكل ما فيها.. وتضطر الشركة أن تدفع النفقات التي تصل أحياناً الى (٢٥ألف دولار).

أما بيض اللقلق الذي يأكله طرزان فتكلف كل بيضة ما يقارب الـ٣٠دولاراً. وهناك مشكلات المؤلف التي يضعها أمام أعينهم. أثناء توقيع العقد طلب بوروز ضمانة كاملة لطرزان.. ماذا يعني ذلك؟.. لا يسمح لطرزان أن يموت أو يعامل معاملة غير انسانية أو أن تصيبه كسور أو جروح.. وإذا قام طرزان بشيء لم يعجب «خالقه» يفرض عليهم تغيير المشهد أو حذفه. في إحدى المرات مثلاً، أسند طرزان رأسه الى الوراء وأخذ يضحك، اعترض بوروز بشدة وأصبح «طرزان لا يضحك اطلاقاً.. انه «هاملت الأدغال» ادغار رايس بوروز يصبح اسطورة، وتحفة قيمة تستحق المشاهدة.. والتقاط الصور معه.

مع انه لا يملك من الوقت الا القليل.. يوم يجيء ويوم آخر يذهب وهو «بمعجلة» هكذ يسمي تأليفه لروايات طرزان -لم يأبه يوماً.. بتحويله الكتابة الى تجارة بحت. شهرة أدبية لم يكن يطمح اليها.. الكتاب يمثلون بالنسبة اليه «مجموعة من الكسالى يعشقون التباهي». انه يملك غرفة عازلة للصوت.. يريها للمعجبين

دائماً. في «الأيام الجيدة» يصل انتاجه الى (٩٠٠كلمة) أي ثلاثين صفحة بالآلة الكاتبة. ابتسم ذات مرة عندما قال له أحد الصحفيين إن الـ(٣٥ مليون) نسخة. من روايات طرزان الـ(٢٧) تكون برج بابل بأكمله. وللملاحظة، هذا بالنسبة للنسخ الأمريكية فقط.

ودائماً.. كتب طرزان وأفلام طرزان جديدة.. طرزان في الاذاعة والتلفزيون، طرزان كمسلسلات مصورة في الصحف والمجلات.. طرزان بكل اللغات، طرزان في كل العالم.

الاحصاءات أثبتت أن أرباح روايات طرزان تكفي لدفع رواتب كل أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي. عند اندلاع الحرب العالمية الثانية أراد ادغار رايس بورروز البالغ من العمر (٦٦) عاماً أن يلتحق بالجيش. بالطبع لم يستجب أحد لطلبه، ولكن سمح له أن يكون مراسلاً حربياً. وقد جرح مرة واحدة. وها هو الآن يعيش الحياة التي طالما عشقها.

في ١٩-٣ -١٩٥٠ يفارق الحياة.. في سريره.. ويترك وراءه ما يقارب خمس عشرة ملزمة من روايات طرزان.. وطرزان هذا الذي لابد أن يكون قد قارب الستين عاماً مازال شاباً يافعاً ومشرقاً وقوياً وجميلاً. معبود النساء والرجال والأطفال. انه الآن يحيا في الأفلام التي تصور بين فترة وأخرى، ويحيا في الاذاعة والتلفزيون والجرائد والمجلات ويحيا في طبعات الكتب الجديدة.



فرانسواز ساغان
صباح الخير أيها الحزن

عندما اشتهرت الشابة ساغان.. كان بامكان المرء أن يقرأ أطرف وأغرب الطرق التي أدت إلى نشوء هذا الكتاب. سقوط في البكالوريا وعزلة فرضت عليها بسبب سقوطها، فكانت تستغلها في القراءة والكتابة بدلاً من مراجعة دروسها.

لقد كانت المسألة بسيطة للغاية. في أحد أيام صيف ١٩٥٣، التاجر الكبير (كواريز) أخبر عائلته التي كانت تصطاف بفيللا لاتبعد عن (بيارتيز) كثيراً.. بأنه سيسافر في صباح اليوم التالي.. إلى باريس لقضاء بعض الأعمال التجارية. الساعة الثامنة من صباح اليوم المذكور علت الدهشة وجهه، عندما رأى ابنته الصغرى فرانسواز التي تبلغ الثامنة عشرة من عمرها جالسة إلى مائدة الافطار وبجانبها حقيبة سفر صغيرة.. «أبي إني أريد السفر إلى باريس» وأخبرها بأن باريس في مثل هذا الوقت ميتة تماماً وحارة للغاية.

«ستضجرين هناك لدرجة الموت». «انني أشعر هنا بالضجر» هذه كانت كلمات كبيرة.. لأنها في بياريتز كانت ترقص ليلياً.. وترتاد دور السينما والمسارح.. وقبل كل شيء، كان المعجبون بفرانسواز متوفرين بكثرة. وعندما لزم الأب الصمت أثناء تناوله للفطور استطردت فرانسواز: «انني بحاجة للوحدة»، فألقى المسيو كواريز نظرة خاطفة على ابنته الصغرى.. التي بدت وكأنها قد تغيرت في الأيام الأخيرة لقد قضت أيامها الأخيرة في البيت بينما الآخرون سافروا الى بياريتز. كانت مشتتة الذهن بشكل يثير الاستغراب، تغلق حجرتها ولاترد على أي سؤال. لقد أصابها النحول. انه الغرام! هذا ما أعتقده الأب. واصطحب ابنته بكل هدوء الى باريس.

الخدم ومدبرة المنزل كانوا يتوقعون.. أن الشابة ساغان ستستمع الى اسطوانات «الجاز» من الصباح حتى المساء.. ومن المساء حتى الصباح، وتدخن سجائر «شيسترفيلد» وتصحب أصدقاءها وصديقاتها، لكنهم أخطؤوا هذه المرة!

فرانسواز.. هرعت الى غرفتها وفتحت نوافذها ونظرت الى الشوارع الخاوية والناس المتعبين الذين يتحركون وسط الحر والجهد بصعوبة.

وتجولت بأركان البيت المظلم، ودخلت المكتبة، وقلبت بعض الصفحات من كتب (بروسب) و(اندريه جيد) و(ستندال)، وعادت الى غرفتها ثانية. وبلا مبالاة دفعت اسطوانات الجاز جانباً، وأحضرت آلتها الكاتبة. الهدوء كان مخيماً. ومن بعيد تناهت أصوات السيارات في شوارع البوليفار الى مسمعها. وعاودتها قصيدة كانت في ذهنها.. كانت ترددها في الأسابيع الماضية.. بعدما قرأتها مراراً:

وداعاً أيها الحزن
صباح الخير أيها الحزن..
أتركني أيها الحزن
عد إليّ أيها الحزن
أنت مكتوب في ثنايا أحلامي
أنت مكتوب في عينيْ الذي أحب
أنت، لست البؤس الأخير
ان شفاه الفقراء تدينك
ببسمة.

الشاعر الفرنسي (ب.أيلوار) كتب قصيدة الحب هذه. كان يعرف ما يريد التعبير عنه. أما فرانسواز فما زالت لاتعرف ذلك. شوقها في ازدياد للمشاعر التي لم تعرفها بعد. أغلقت الآلة الكاتبة. وبدأت تكتب بيدها على أحد دفاترها المدرسية. في هذه الدفاتر كتبت كل ما يمكنها أن تكتبه. فلم لاتكون روايتها الأولى أيضاً؟ نعم، انها تريد تأليف رواية. ولا مفر من ذلك.. وهي الفتاة الكسول التي تحب الاستلقاء على ساحل البحر.. وسماع اسطوانات الجاز وتدخين السجائر الاميركية.. وشرب الويسكي. منذ أيام أصبح كل شيء معلوماً - ولاتراجع بعد الآن.. - بيتها في بوليفار «ماليرب» - كانت تشعر بقوة عارمة في أعماقها لكنها لاتعرف الوسيلة لاستغلالها. وفيما يتعلق بالرواية فهي تعرف البداية فقط. وما

الذي ستعالجه بروايتها؟ بالطبع، ستدور حول تجاربها هي. ولكنها لاتملك الكثير من التجارب. إذاً عليها الآن أن تكتب حول التجارب التي تود الخوض فيها ومعايشتها. وفجأة.. فجأة.. بدأت تكتب بصيغة الـ «أنا».. عن سيسيل الفتاة البريئة الصغيرة التي خرجت من القسم الداخلي الى أبيها في باريس «اني لم أجرب الكثير.. هو سيريني باريس.. والترف والحياة بجوانبها الضعيفة والجميلة معاً.. أعتقد أن الأشياء كافة التي وفرت لي الفرح في السابق كان سببها المال.. الفرح.. عند ركوب سيارة، وشراء فستان جديد، أو جهازاسطوانات أو كتب.. وزهور» كم كان سهلاً كتابة كل هذه الأشياء. فرانسواز أحست بأن المزيد مازال مخزوناً في داخلها. أكثر مما كانت تعتقد. لقد أدركت.. أن حياة الناس تشكل احدى الوسائل الضرورية التي توفر امكانية تحقيق الذات. لقد بدأت تغور في أعماقها وتستغرب لما تراه، كانت تستمتع بهذه العملية.. وأدركت بأنها ستستمتع أكثر لو غارت في أعماق الآخرين. وتوصلت الى أسرارهم ونشرتها في ضوء النهار. لقد أدخلت في روايتها بعضاً من مذكراتها. ذكرت أن (سيسيل) دخلت الجامعة، وكانت ترتاد السينما وتجلس على مقاهي الأرصفة تحت أشعة الشمس. «لقد تذوقت المتعة، بزج نفسي بين حشود الناس.. أشرب وأجلس مع انسان، استرق النظر اليه.. وآخذ بيديه خارجة من هذا الحشد البشري.. لقد وجدت المتعة.. في طعم القبلة».

مكان الأحداث هو (سانت تروبيز) حيث كان والد سيسيل قد استأجر فيللا لقضاء أشهر الصيف فيها.. مصطحباً صديقته المؤقتة (الزا).. المخلوق البدائي والطليق في الوقت نفسه.. بيتها كان النادي الباريسي الأنيق.. انها رفيقة مريحة وجذابة لعطلة كهذه.. كما واصطحب ابنته سيسيل أيضاً. على ساحل البحر تتعرف سيسيل على (سيريل). في السابق لم يكن لديها أدنى اهتمام بالرجال. كانت تجدهم عنيفين ومزهوين بشبابهم. لكن سيريل كان مختلفاً.. لقد أثار اعجابها.. ومعه تذوقت أول طعم للقبلة.

هذا الصيف المثالي بات مهدداً.. لأن الأب خطر بذهنه أن يدعو مصممة الأزياء (آنا لارسن) التي تبلغ الثانية والأربعين من العمر. مثيرة للغاية وقسمات وجهها يعلوها الكبرياء واللامبالاة المتعبة. لكنها كانت متشددة بتربية الفتيات الصغيرات. سيسيل عرفت، أن (آنا) مغرمة بوالدها. نحن معرضون الآن لكل عوامل الدراما.. مغتصب، امرأة من العالم الأسفل، وامرأة واعية. وكانت معبأة

بالغيرة تجاه آنا.. وتعارض معاملتها لها كالأطفال. ويأتي المشهد الكبير.. أمام احد مقاهي (كان). والدها وآنا يفكران بالزواج.. كل ذلك من نسج الخيال. فرانسواز كواريز لم تمر بتجربة كهذه. حياتها مناقضة تماماً لحياة سيسيل.

الأب صناعي من شمال فرنسا.. الأم تنتسب الى عائلة في ضواحي (بوردو). لديها أخت ترعى سوزان تكبرها بخمس سنوات.. فتاة شقراء جميلة، وأخ يدعى جاك يكبر فرانسواز بسنتين.

الأخت الصغرى ولدت في ٢١ - ٦ - ١٩٣٥ في كارياك.. العائلة كانت تسميها «كيكي». طفولتها تقضيها بين كارياك وباريس. لم تكن في الخامسة من عمرها عندما اندلعت الحرب.

العائلة تهاجرمن باريس. والأب يترأس أحد المصانع الكبيرة في (دوفين). كيكي سعيدة بوجودها في الريف. كانت تمتطي (المهر الصغير) الذي أهداه لها والدها. وعند بلوغها الثامنة سمح لها والدها أن تقود سيارته، لاغاظة أمها.. لا غير! مدرستها تكتشف أن فرانسواز لاتحب النظام.. ولذا فهي لاتحب المدرسة. هذا لايعني بأنها لن تتعلم! انها تريد أن تتابع تعليمها متى وكيفما تشاء هي! لو كسر النظام فستقبل بكل شيء. انذار جوي يبدأ في المدرسة. فيختبئ الطلبة في القبو.. فرانسواز تسرّ لذلك.. كم بودها لو يحدث ذلك كل يوم. انها لاتدرك طبعاً بكم من الدموع والدماء تّشترى هذه الساعات الحرة. وستظل هي كذلك.. لاتدرك، بأن كل الأشياء التي توفر لها الفرح تكون غالباً على حساب الآخرين. عدم القدرة هذه ستبرز، ربما دون وعي في روايتها «مرحباً أيها الحزن».

وتنتهي الحرب.. وتعود العائلة الى باريس.. وتلتحق فرانسواز باحدى مدارس الراهبات حيث كانت تشعر بتعاسة كبيرة.. النظام يسيطر هنا بصورة أقسى من مدرستها الريفية. فتغدو كالهيكل العظمي. وتترك انطباعاً سلبياً.. فتطرد من المدرسة. السبب الذي تطرحه مسؤولة المدرسة أمام والدها: «نقص في الذكاء».

في الأشهر التي تلت، لم تزر فرانسواز أية مدرسة. كانت تقوم بجولات طويلة تكتشف من خلالها باريس: «باريس ملكي، وملك عديمي الوعي.. الطليقين.. كنت أشعر بذلك دوماً.. لكن بتألم لأني لم أكن غيرواعية.. وفي هذه المرة كانت مدينتي، مدينتي الجميلة الذهبية». فرانسواز تراقب الناس من مقاهي الرصيف وتراقب حركة المرور في ميدان «قوس النصر». انها نحيلة كصبي صغير.. ترتدي دائماً الملابس

نفسها.. وأثناء مراقبتها للناس.. ترسم لهم أقدارهم.. لقد اتخذت قرارها بأن تصبح مؤلفة! نعم، مؤلفة - وهي لاتزال في الرابعة عشرة من عمرها - وتؤلف أولى رواياتها! رواية تحكي قصة امرأة شابة متزوجة. لماذا؟ لأنها ملت عشيقها.. لكنها تكتشف أن زوجها ممل أكثر.. انه طبيب جراح معروف ولايتحدث معها الا في مواضيع العمليات. فيبدأ شوقها وحنينها الى عشيقها الأول يزداد. هذه هي رواية فتاة الأربعة عشر عاماً. فرانسواز لاتعلم بالضبط.. ما تصنعه بنفسها؟ انها لاتبدأ بنفسها وانما بدفتر المذكرات الذي تضع فيه كل ثقتها.

فرانسواز ترتاد السينما بكثرة «السينما تعطيني الفرصة لالتقاط أنفاسي والتغلب على الضجر المريع الذي غالباً ما يهاجمني». هذا ما ستذكره فيما بعد.

وأخيراً تذهب الى مدرسة أخرى، فتصبح وبشكل فجائي من أفضل الطالبات. لكنها تعمل حسب رغبتها. انها تهتم بالأدب، وتكتب الانشاء بصورة تثير دهشة مدرسيها. انهم يفتحون النقاش معها.. يا للعقل الاستنتاجي! يا للفضول النفسي لفتاة بعمرها! بعد المدرسة تجلس كالعادة في المقهى، تراقب المارة وتنفث دخان سيجارتها. رائحة البيرة والسيارات تثير فيها حواراً داخلياً.. فتحلم.. يا ترى ما هي أقدار هؤلاء الناس الذين يجلسون بجوارها. وكيف تبدو بيوتهم من الداخل؟. انها ليست من النوع الذي يثير الانتباه اليها.. فهي لاتهتم بأمور الرجال. صديقاتها يعانين من نقص تام في لفت انتباه الرجال اليهن. شعرها دائما غير مرتب وأمها توبخها «تبدين ككلب مضروب على قفاه!» أحياناً تسائل نفسها.. ما الذي ستكونه.. لبضعة شهور تشعرباهتمام ورغبة في الصحافة. ثم سرعان ما تعدل عن رغبتها هذه.. وتكتب قصصاً قصيرة.. وتطبعها بجهد كبير.. وتبعثها الى المجلات.. لكنها لاتنشر. فتبدأ بمرحلة القراءة.. تقرأ بشغف.. لاسيما لـ (بروست) وتعجب باحدى شخصياته (الدوقة ساغان) هذا الاسم يعلق بذهنها. تعلق فيما بعد على هذه الفترة قائلة «لم أكن محظوظة في الحب. ينتهي كل شيء بعد مضي ثلاثة أشهر.. ولايتبقى إلا العذاب..». مع انها لم يكن لها حبيب قط.. ولم تعرف معنى الحب.. لاشيء من هذا تعرفه، بل تكتشفه من خلال كتابتها لرواية «صباح الخير أيها الحزن». انها تستخرج كل ما في شعورها الباطني.. وتمزجه بشعورها الواعي.

سيسيل كانت مصممة على أن تقف بوجه زواج أبيها.. حجتها، «انها تؤذينا، لأنها خطرة، يجب طردها من حياتنا.. آنا ستجعل منا أناساً متزمتين ومهذبين

وسعداء» انها تتحسس بحدة ضياع حياتها الطليقة مع والدها. لقد بدأ والدها ينفصل عنها. لقد قضت أياماً في مراقبة ذاتها المعذبة واليائسة.

ذهنها كان لايكف عن التفكير بآنا.. التي كانت تحبها وتكرهها في آن واحد. جسدها أصبح نحيلاً. كانت تفكر بسيريل وبليالي الحب التي يقضيها والدها مع آنا. تخيلها لآنا ولحياتها المهدمة.. لم يتركها لحظة واحدة. وليالي الصيف باتت تؤرقها.. كانت تستمع الى الاسطوانات وتدخن وتشرب وترى نفسها منهارة تماماً. وفي الواقع كانت حزينة.. ووضعها مربك. في رأسها تدور خطط كثيرة.

وفجأة.. أدركت ما عليها القيام به. ستستخدم الزا في تفرقة آنا وريمون. فعرضت السكن على الزا في فيللا سيريل ووالدته. وعلى الاثنين أن يقوما بدور العاشقين. لاثارة غيرة ريمون. وكانت سيسيل مقتنعة بنجاح خطتها. غرور أبيها لايسمح له بالاعتقاد بأن هناك امرأة تستطيع تركه. سيعمل المستحيل ليرجع الزا، سيريل كان من الصعب نيله وسط هذه الكوميديا. لكنه كان حبيب سيسيل التي تملكه بيديها.

العجيب والرائع في رواية فرانسواز كواريز.. وصفها للمشاعر، في الصميم وصفاً صحيحاً. بالرغم من أنها لاتعرف هذه المشاعر الا من خلال أحاديث صديقاتها المجربات ومن مراقبتها في شوارع باريس.. وعلى الساحل وفي قرية (دوفين) وفي عائلتها وفي بيوت صديقاتها.. يعرض الآن ويشكل فجائي على هيئة صورة مكثفة.

أيستطيع المرء وصف قدرتها هذه بأنهاموهبة؟ أهي متقدمة على بنات جيلها؟ نعم، بلاشك أنها موهوبة. وبلا شك أنها تتحلى بذكاء لامع. ولكن بالتأكيد.. هذا لايكفي لتأليف أي عمل كان. انها تعمل بحق، هي، التي كانت تجعل مدرسيها يضربون رؤوسهم بأيديهم لأنها لاتعمل بانتظام ولاتفهم نوعية عملها، تعمل الآن بحماس.. يتهيأ لها وكأنها استجمعت قوة هائلة، تريد استنفادها منذ البداية، وهي لم تكن تملك تصوراً واضحاً حول روايتها. كانت تعرف كيف تبدأ الأشياء.. بمثل الأب والابنة والعشيقة في الريفييرا. والآن ما الذي سيحدث بعد اعلان موعد زيارة آنا..؟ «لقد قمت بعملي بكل سهولة».

واستمر كالمعجزة.. كانت الأفكار أثناء ذلك تنساب من رأسها لدرجة أنها لاتلحق بكتابتها. وبالمناسبة فقد بقيت وسط حمى العمل هذا كسولة للغاية. لاتود أن «تكتب» أكثر من ساعتين. انه الوقت المخصص للكتابة في دفاترها المدرسية

ويعدها تقوم بالطباعة.. التي تشعرها بمتعة وارتخاء.

كانت توجه الى نفسها انتقاداً قاسياً. كل ما تكتبه كانت تجده مضجراً. وتتردد هل تستمر في كتابته، أم تعيد كتابته من جديد؟ لكن كسلها كان يحول دون ذلك. حاولت أن تركز بدقة وتجعل جملتها ذات ليونة واستدارة.

صديقتها ميشيل التي قرأت قصائدها الأولى، ورواياتها ذهلت أمام هذه التجارب. ففي كل قصائدها ورواياتها لجد عدداً كبيراً من العشاق. وإذا تحدثت فرانسواز عن الرجال الذين ينظرون اليها، بمحض المصادفة - لأنها كانت نحيلة - تعلق: «ليس لي رغبة بذلك» ووسط دهشة صديقتها وقولها بأنها لاتعرفه.. لذا لايمكنها أن تحبه، تقول «سأكون مستعدة من أجل التجربة فقط». لكن القدر أراد لها ألا تجمع التجارب.. فيظل كل شيء مختلفاً. فرانسواز تملك قدرة عجيبة على استعادة ملامح الآخرين الذين لم ترهم إلا مرة واحدة، والمواقف التي كانت تحيط بهم. انها لاتختلق أشياء غير واقعية.

روايتها تثير الشفقة.. بمجرد طرد العشيقة وزوجة المستقبل، تستغل البطلة عشيقة أبيها السابقة، وصديقها ليقوما بدور العاشقين.. وذلك ليس لمرة واحدة.. بل بشكلٍ مستمر. أينما يوجد الأب يكون الاثنان اللذان لايربطهما شيء.. أمامه. ويقومان بمعانقة بعضهما البعض وكأنهما عاشقان.. ومن لايصدق ذلك يحصل على قرش. كلا، إن فرانسواز لاتختلق.. وهنا تكمن قوتها.. ولكنها لاتستطيع أن تقوم بعمل مرتين. وهذا ما أثبتته حياتها القصيرة.

الطالبة اللامعة والذكية كان بالامكان أن تتفوق على الجميع لكنها أفلحت في أن تسقط في امتحاناتها الجامعية.. وبهذا كانت دراستها قد انتهت.

أهلها.. اعتادوا ذلك. اعتادوا كل ما يتعلق بـ «كيكي»، إلا الأم التي أوضحت: «إذا لم يكن بمقدورك أن تحصلي على دبلوم الأدب.. تعلّمي على الأقل كيف تسرحين شعرك». وقتذاك أخذت فرانسواز تشعر باضطرابات نقدية ازاء أهلها. كانت تحب أهلها - بالأخص والدها لكنها كانت ضد ثورته.. كان كالأم وكبقية أفراد الأسرة.. لايحملون هماً.. ويعلمون جيداً كيف سيعيشون غداً. كان لايفكر اطلاقاً بلمس أرباح ثروته.. ولاأرباح أرباحه. فرانسواز لم تحلم يوماً بالضمان .. لأنها ولدت في زمن انهيار البورجوازية. أدركت أن الضمان ضرب من الوهم.. وأدركت أيضاً: أن خيبات الأمل السريعة مفعولها أقوى وأبطأ من الأوهام. وذكرت أن جيلها

بأكمله يفكر ويشعر بهذه الطريقة. كان ذلك شيئاً فظيعاً بالنسبة للأم. أما بالنسبة للأب فكان مثيراً، لا أكثر: وهو كرجل وقف بقدميه على أرض الواقع.. في العشرينيات كان يتأرجح وسط أفق أفكاره، أما الآن، فما عاد يتعجب لشيء.. أو يتذمر لشيء.. كان ينظر للأشياء كما هي.. ويرى ابنته كما هي. وبالمناسبة -وهذا شيء مهم - لم يكن يشبه الأب في رواية صباح الخير أيها الحزن.. اطلاقاً. وطبعاً مع مرور الزمن.. أخذ الكثيرون يدعون بذلك. المسيو كواريز كان تاجراً.. ومواطناً سعيداً بزواجه.. يرعى عائلته ولايفكر يوماً بالمغامرات.. بينما ريمون والد سيسيل... كان مستعداً للزواج بآنا.. والتنازل عن حياة المغامرات بالرغم من محاولات سيسيل الوقوف دون ذلك. مع انها لم تكن تكره آنا.. وبالعكس كانت تكن لها الاعجاب. لقد رحبت بها واحتقرت نفسها بعض الشيء لأنها كانت تقوم ببرمجة عمليتها ضد زواج آنا.

ولكن ماذا عليها أن تفعل؟ في الواقع كان الخوف يتملكها. الخوف من فرانسواز كواريز - الخوف من أن تضجر سيسيل. تخيلت نفسها وهي في الثلاثين من عمرها - ستكون شبيهة بصديقات أبيها اللواتي لايشبهن آنا بشيء. ستتزوج من رجل مثير وفي الوقت نفسه مضجر ويعاني من الخمول، وقسمات وجهه مجعدة بعض الشيء كأبيها. فرانسواز كانت على وشك أن تتزوج رجلاً بهذه الأوصاف.

سيسيل تخطط.. كانت تقوم بالمستحيل لتجعل أباها يلتقي بعشيقته السابقة وصديقها. مع أن الغيرة كانت تنهشها.. عند رؤيتها سيريل والزا يتعانقان كالعشاق تماماً.. وأخيراً جاء ما كان مرتقباً: ريمون يضرب موعداً مع الزا. سيسيل أدركت بعد فوات الأوان بأنها قامت بشيء ليس من حق أي امرئ أن يقوم به - التلاعب بأقدار الآخرين - لذا... بدأت تتراجع.. ولكن كما ذكرنا.. جاء كل شيء متأخراً.

الزا وريمون كانا بوضع حميمي للغاية عندما فاجأتهما آنا. ومرة ثانية تقوم المؤلفة بتصوير غير مقنع.. أمن المرة الأولى يفتضح كل شيء؟ وقبل أن يتقرر أي شيء؟

على أي حال.. آنا رأت ما يكفيها. ركبت سيارتها وقادتها بسرعة جنونية.. أدت بها للاصطدام على طريق جبال الريفييرا والوقوع في الهاوية لقد فسروا هذه الحادثة بأنها كانت قضاءً وقدراً.. لكن سيسيل تقول: «لقد أظهرت لنا تعلقها حتى بموتها.. لقد أفسحت أمامنا الفرصة لنعتقد أن موتها كان كذلك». فرانسواز عملت

برواياتها ما يقارب الشهرين والنصف.. كل يوم ساعتين. من الكتابة اليدوية في الدفاتر المدرسية.. ومن ثم طبعها على الآلة الكاتبة.

وأخيراً انتهى كل شيء.. وسمّت كتابها «صباح الخير أيها الحزن» مقتبساً من قصيدة (إيلوار) المؤثرة.

ثم قامت بعمل غريب للغاية.. لقد أحضرت دفتر يومياتها.. الذي كتبته في مدة ثلاث سنوات ورمته في نار المدفأة. كل ما كانت تحس وتفكر فيه أدخلته في الرواية التي أمامها. مرحلة من حياتها قدَ انتهت، ومرحلة جديدة قد ابتدأت.

المرحلة الصعبة من حياتها تبدأ بعد الانتهاء من الكتابة. من سيطبع رواية لكاتبة مجهولة؟ إنه سؤال حياتي بالنسبة للكتّاب الناشئين. لقد تحملوا الجوع لآخر سطر من كتاباتهم.. والآن ما عليهم إلا أن يأكلوا وجبتهم الدسمة. عند ساغان تبدو الأمور مختلفة تماماً.

انها لم تذق طعم الجوع ليوم أو حتى (ساعة)، ولم تقم باستعارة النقود اللازمة لشراء الشجاعة بالمشروبات لقد كانت محاطة بالرعاية.. تملك غرفة جميلة وملابس أنيقة.. ونقوداً كافية.

أول من اطلع على روايتها صديقتها فلورانس.. ابنة الكاتب المعروف (اندريه مالرو). في الحقيقة لم تود أن تريها النصوص «ستجدينها رديئة جداً» لكن الصديقة وجدت النصوص ممتازة.. صديقة ثالثة تنجذب لهذه العملية أيضاً.. كوليت اندريه.. موظفة في المجلة الأدبية التي يرأسها جان بول سارتر وينشر بين الفينة والأخرى بعضاً من مقالاته فيها. كانت مندهشة بدورها. قدمت فرانسواز للناشر (رينيه جولار) وكان من أكثر الناشرين الشباب جرأةً في باريس - بعد الحرب. سلمت النصوص في ٦/١//١٩٥٤ وعلى الغلاف كتبت اسمها وعنوانها وتاريخ ميلادها ١٩٣٥/٦/٢١ تاريخ الميلاد لفت انتباه الناشر.. في الثامنة عشرة من عمرها، وتؤلف رواية بأكملها؟ شرع بالقراءة.. متمنياً لنفسه ساعة هنيئة، يا ترى ما نوعية الرواية التي قامت بتأليفها فتاة في الثامنة عشرة من العمر؟ وبعد مرور ربع ساعة.. حصل على الجواب: انها قنبلة!

وبعد ذلك بيوم كانت فرانسواز المرتعدة تجلس قبالته. وبدأ التحقيق الدقيق. أيحكي الكتاب تجربة ذاتية؟ فرانسواز لم تجد جواباً مناسباً. مجرد الفكرة بأن يعتقد أحد أن هذه الرواية تمثلها شخصياً.. لم تخطر ببالها قط. فتنفي بحدة، (جولار)

يشعر بالارتياح. انه لايرغب كثيراً بنشر رواية تكون صاحبتها لا أخلاقية كشخصية سيسيل «هل قرأ ذووك الكتاب؟» أراد أن يعرف أيضاً. فرانسواز أصابها الاحراج «كلا، أبي مشغول بأعماله دوماً.. وأمي إن قرأته، فسوف لايعجبها» وكانت محقة بذلك فعلاً.

أول شيء قام به الناشر.. هو توقيع شيك بخمسين ألف فرنك. ومن الطبيعي طلب توقيع الوالد على العقد «لانك مازلت دون السن القانونية»، لكن رأس فرانسواز كان منهمكاً بالشيك. فهجمت على (مقهى فلورا) حيث كان أصدقاؤها وصديقاتها بانتظارها «ويسكي للجميع» صرخت، وهي تلوح بالشيك كما لو كان علماً. بعد مرور سنة خصبة سلم جولار المؤلفة شيكاً بخمسة ملايين فرنك. فرانسواز كانت تتجول بالمكتبات لتتطلع إلى الكتب الجديدة.. ومصادفة رأت كتابها «صباح الخير أيها الحزن»، فاستفسرت دون أن تجعل أحداً يشعر بأنها مؤلفته، عما إذا كان الجمهور مقبلاً عليه «لكننا لم نستلمه إلا بالأمس» كان الجواب. «على غلاف الرزمة، مكتوب أن عمرها لايتجاوز الثامنة عشرة، نحن لانصدق ذلك». نحن - هؤلاء كانوا العاملين -.

«لقد قرأنا في الكتاب قليلاً.. انها مسألة جريئة للغاية.. إذا اشتريته يا آنسة فلا تدعي أحداً يراه في البيت، ماذا ستفعلين لو وجدته والدتك». بعدها بأيام.. بدأت الصحف تكتب عن كتاب (صباح الخير أيها الحزن).

جميع المكتبات تعرضه في واجهاتها. كل العالم أراد قراءته. فرانسواز أصبحت شهيرة. ونالت وسام النقاد. والشخصيات البارزة، وأعضاء الاكاديميات أهدوا اليها افتتاحياتهم.

امتدحوها وشتموها في آن واحد. المتسلحون بالأخلاقية المتزمنة «هكذا إذاً هن فتياتنا». فرانسوا مورياك الحائز على جائزة نوبل سماه: «شيء صغير جذاب وفظيع». ومن جراء هذا كله.. عندما تأتيها مخابرة تلفونية يطلبون فيها فرانسواز ساغان.. يحصلون على جواب غليظ «النمرة غلط»، وتغلق السماعة. وهي تقول «المرء يعمل كل شيء.. كل شيء ليربي أولاده تربية حسنة.. وها هي النتيجة!».

الكتاب يترجم الى تسع عشرة لغة. في امريكا احتل قائمة أفضل الكتب بسرعة فائقة. أكثر من مليون نسخة وزعت في اميركا وحدها وفي الأماكن الأخرى بيع منه مئات الآلاف. كان من الظاهر أن العالم كله متعطش لقراءة كتاب لفتاة في

الثامنة عشرة من عمرها، وما كتبته حول الحياة والحب.

انه مؤشر عصرنا! مؤشر لعدم ثقة الناضجين.

فرانسواز ساغان - هكذا علينا أن نسميها الآن - أصبحت ثرية! وتبع هذا الكتاب كتب أخرى. نالت استحساناً جيداً.

كتابها الأول تحول الى فيلم سينمائي. كذلك كتبها الأخرى. ماذا فعلت ساغان بأموالها؟ لقد اشترت السيارات. كلما كانت أسرع.. أصبحت محببة الى نفسها أكثر.

لقد اشترت لنفسها سيارات السباق - التي كانت ترغبها. وحصل ما كان يجب أن يحصل - لقد عملت اصطداماً مخيفاً. نجت منه بأعجوبة.

ساغان عاشت حياة المشاهير.. كانت تثير الاعجاب.. وتشرب كثيراً، بالنسبة لفتاة في عمرها، لكنها لاتشرب وحدها أبداً.. دائماً تكون محاطة بشلة من الشباب والفتيات والعبثيين. شيء مؤسف لفتاة كفرانسواز ساغان.. ألا ترى إلا أناساً كهؤلاء. لكن احتياجها للناس يرغمها.. انها تملك خوفاً.. الخوف الوحيد المميت أكثر من خوف الموت ذاته.. انها لاتخشى الموت، وإلا لما ساقت سيارتها بهذه السرعة وسط شوارع فرنسا. خوفها الوحيد والحقيقي.. هو أن تكون وحيدة، وسط حمى أفكارها حول نفسها.. والانتقام منها. لذا تظهر في المجتمعات.. وتجلس وسط شلة الفتيات والشباب، ولم يتغير شيء.. الا بمحاولتها الزواج مرتين. المرة الأولى عام ١٩٥٨ كان رجلاً من الممكن أن يكون والدها أو ريمون في روايتها.. مدير احدى دور النشر.. ولكن ليس ناشرها. بعد مرور سنتين تنفصل عنه، وتتزوج للمرة الثانية عام ١٩٦٢ أحد الأمريكيين القاطنين في فرنسا.. انه فنان سيراميك. وتنتظر منه مولوداً، ولكن، حتى الطفل لم يمنع من أن يكون من عائلة - السيراميك.. قطعٌ مكسورة. لم تبق معه الا سنة واحدة فقط. انها وحيدة الآن! وثانية تجد نفسها أمام خوف الوحدة.. التي تحاول الهرب منها. ولكن لم تخش التفكير؟ هل تملك يا ترى شيئاً ما من بطلة روايتها سيسيل بأعماقها؟ أتخفي شعوراً بالذنب كسيسيل.

حتى لو كان في لا وعيها فحسب؟.

فهرس

منتدى اقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com